

شعرت بالحاجة لكي أتواري قليلاً... قبل أن أكتب وأن أتكلم!!

في يوم الأربعاء الثاني عشر من سبتمبر ،الذي شهد بزوغ فجر أول يوم شهد عالماً جديداً أصابه الجنون . لا شيء البتة سيعود إلي سابق عهده . في ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم ، وبعد ساعات نوم قليلة للغاية ، اجتزت الباب ، لأستقل مروحية كانت بانتظاري، كي تمضي بي لرؤية رئيس الولايات المتحدة. كانت إجراءات الأمن المضروبة حول بيتي في ضاحية ميريلاند بواشنطنون أكثر تشدداً عن ذي قبل ، وعند وصولي إلي البيت الأبيض رأيت أفراد الخدمة السرية المكلفين بحماية الرئيس ، و المدحجين جميعهم بالسلاح ، و قد غطوا كل شبر من الأرض . و بدت الطائرات الحربية في السماء تحرس العاصمة الأمريكية . فمنذ أقل من أربع و عشرين ساعة ، تعرضت أمريكا لهجوم بواسطة جيش غير نظامي . وقد لقي الألاف حتفهم في مدينة نيويورك و وزارة الدفاع الأمريكية " البنتاجون " ، و في أحد حقول بنسلفانيا.

وبالنسبة لنا في وكالة المخابرات الأمريكية ، فقد كان لدينا سبباً جيداً يجعلنا نعتقد بأنه ربما تكون هناك هجمات أخرى في الطريق خلال الساعات ، أو الأيام التالية ، و أن هجمات ١١ سبتمبر ليست سوى أوبنينج سالفو لهجوم ماتي برونجد علي المعالم و المواقع الرئيسية داخل أمريكا .

كتابي يحمل القصة التي لم ترو حول تحذيرات بالجملة أطلقناها

قبل هجمات سبتمبر .. و لم تأخذها الإدارة مأخذ الجد!!

كانت هذه الأفكار تضغط بقسوة علي عقلي ، أثناء سيرتي في الممر المؤدي إلي " الجناح الغربي ، و حتى رأيت ريتشارد بيرل و هو يخرج من المبنى في نفس الوقت الذي كنت أهم فيه بالدخول . و بيرل هو واحد من مجموعة شخصيات يحمل كل منها لقب " الأب الروحي " لحركة المحافظين الجدد ، و في ذلك الوقت كان يشغل منصب رئيس هيئة سياسات الدفاع ، و هي مجموعة استشارية مستقلة تتبع وزير الدفاع . و لم يكن هذا اللقاء عند الباب سوي مرور عابر لا أكثر و لا أقل . و بينما ينغلق الباب عقب خروج بيرل ، رمق كل من الآخر بنظرة و إيماءة . و مع اقترابي من الباب ، استدار بيرل نحوي ، و قال : " علي العراق أن يدفع ثمن ما حدث بالأمس . هم يتحملون المسؤولية "

و هنا شعرت بالصدمة . و لكنني لم انبذ بينت شفة . فقبل ١٨ ساعة ، قمت باستنساخ قوائم ركاب الطائرات المختطفة الأربع ، و التي ظهر من خلالها ، و بما لا يدع أي مجال للشك ، أن تنظيم القاعدة

وراء هذه الهجمات .

وعلي مدي الشهور و السنوات التالية ، و نحن نحقق في احتمالات وجود دور محتمل لرعاة للقاعدة رسميين ينتمون لدولة ما . و المخابرات فور الهجمات ، و حتي يومنا هذا تحقق ، و لكن لم نجد دليلاً واحداً يشير إلي تورط العراق .

و عودة إلي البيت الأبيض صبيحة الهجمات ، و عند نقطة التفتيش الأمني التابعة للخدمة السرية ، عدت بناظري إلي بيرل و فكرت : ما هذا الهراء الذي يتحدث عنه ؟ .. و ما هي إلا لحظة واحدة ، إلا و وجدت فكرة أخرى تهاجمني : من الذي كان ريتشارد بيرل يقابله في البيت الأبيض في هذه الساعة من الصباح الباكر لهذا اليوم العصيب ، الذي لم نشهده من قبل ؟ .. الحقيقة أنني لم أعرف أبداً إجابة هذا السؤال .

و للأفضل و الأسوأ ، فقد شكل الإرهاب و العراق القضيتين الرئيسيتين ، التين شكلا صلب عملي طيلة سنواتي السبع كمدير للمخابرات المركزية ، قبل أن اتحنى عن مناصبي في شهر يوليو عام ٢٠٠٤ . و قد طغت هاتين القضيتين عن سائر القضايا الأخرى التي تتعامل معها المخابرات الأمريكية ، و كل القضايا الأخرى التي قابلتني أثناء مشواري الوظيفي في المخابرات بأكمله . و علي الرغم من أنني لم أدرك ذلك ذاك اليوم ن إلا أنني وصلت إلي اعتقاد مفاده أن لقائي العابر مع ريتشارد بيرل ذاك اليوم ، و ما قاله من كلمات كان في غاية الخطورة . و لأنني نشأت في مدينة نيويورك في حي كويتز لأب مهاجر ينتمي لطبقة العمال ، فقد كان من المستحيل علي أن أتخيل أنني سأجد نفسي في مثل هذا الموقف . لقد كنت أحلم دائماً بوظيفة حكومية ، و لكنني و لكنني لم أفكر و لو للحظة واحدة أنني سوف أحييا في العالم الخفي للمخابرات . و الآن أفكر في سلسلة التقلبات و التآرجحات الوظيفية التي جعلتني أجد نفسي أمام مرايا متوحشة .

كتابي كشف حساب لجهودي وزملائي في مواجهة الإرهاب

واعتراف بكل أخطائنا و لا بد من منحنا ما نستحق من تقدير!!

و بينما أمضي في عملي الوظيفي ، فإذا بي أجد المخابرات تنقسم إلي ما هو مثير و و ما هو محبط ، لأنها بالتحديد تتعامل مع كل ما هو غامض و مجهول و خفي بطريقة متعمدة . و ما يحاول أعداء الولايات المتحدة - جاهدین - إخفائه ، يعمل رجال و نساء المخابرات المركزية - جاهدین - للكشف عنه . و

علي مدي حياتي العملية ، و باتباعي قيم المخبرات ، حاولت أن أحد من ظهوري أمام العامة .
و عندما رحلت عن الحكومة ، شعرت بالحاجة إلي التواري لبعض الوقت ، كي أمنح نفسي فرصة
للتفكير قبل أن أكتب ، أو أتكلم .

و بعد أن استفدت من عنصري الوقت و التأمل وصلت إلي قناعة بأن هناك التزام في عنقي بأن أتقاسم
بعض الأشياء التي تعلمتها و خبرتها إبان عملي في المخبرات الأمريكية . و شعرت بأني مدين لأسرتي ،
لزملائي السابقين و للتاريخ بأن أفصح عن كل ما أستطيع الإفصاح عنه حول الأحداث التي عايشتها .
و تعتمد مذكراتي علي إعادة تجميع أحداث جسام شهدتها فترة عصبية من تاريخ أمتنا .
و هذا العمل لا يتوخى فقط الموضوعية في التناول ، و إنما حرصت علي أن يلتزم الأمانة و التجرد من
الذات .

هناك الكثير من الأشياء التي أفخر بعملها أثناء أدائي مهم وظيفتي كمدير للمخبرات المركزية ، كما أن
هناك أشياء أخرى كنت أتمني عملها . كما يتضمن كتابي - كما سيرى القارئ في صفحاته -
اعترافات مني بأخطاء ارتكبتها أنا و الوكالة التي كنت أتولى إدارتها . و عندما اتناول مناسبات كان
أدائها فيها قويا ، أتمنى أيضاً أن تكون هذه التأكيدات محل التقدير العادل و اللائق .
هذا الكتاب يعكس كيف كانت تبدو الأشياء بالنسبة لي ، في الوقت الذي كنت أجد نفسي فيه
و حدي في قلب العاصفة .

حيث كنت تجد نفسك مسؤولاً عن التعامل مع قضايا اكتشفتها من موقعك ، و من نفس هذا الموقع
كنت أجلس لأري موجة المد الإرهابي . و من موقعي حيث أجلس ، كنت أرى أيضاً و كالتي حيث
تعمل مجموعة صغيرة من المحاربين ، في عزلة ، و دون تمويل ، يسبحون جميعهم و حدهم ضد هذا المد
الإرهابي .. يدقون ناقوس الخطر .. يحذرون .. يرددون .. يقدون مضاجع .. و يحاولون تدمير حركة
إرهاب عالمية تعمل في سبعين دولة تقريباً ، و تصر علي تدميرنا .

هذه هي قصة الكيفية التي نظرنا بها للتهديد ، و ما فعلناه حياله ، كيف توصلنا إلي قناعاتنا ، و السبب
وراء الاستعداد الذي كان عليه رجال و نساء و كالتنا المركزية لتنفيذ خطة عمل للرد بالقوة علي ضياع
أرواح ٣ ألف أمريكي و أجنبي .

هذه أيضاً قصة الكيفية التي تمكنا بها من تجريد دولة مارقة من أسلحة دمارها الشامل دون أن نطلق
رصاصة واحدة ، و كيف أتينا بأخطر دولة تنشر أسلحة الدمار الشامل عرفها العالم إلي حيث العدالة .

الكتاب بمثابة عملية استدعاء لجهود التي بذلناها لاحتواء الخلافات التاريخية بين الإسرائيليين والفلسطينيين ، و إعطاء فرصة للدبلوماسيين للسعي وراء حل سياسي لأزمة مزمنة و معمرة . . إنه أيضاً قصة لم ترو بعد عن فيض التحذيرات التي لم يحسب حسابها بعد لهجمات محتملة إذا تمت مقارنتها بهجمات ١١ سبتمبر فإن الأخيرة تبدو ضئيلة !

فوجئت بريتشارد بيرل صبيحة هجمات ١١ سبتمبر في البيت الأبيض

يحمل العراق المسؤولية ويتحدث عن الثمن الفادح الذي لا بد أن يدفعه !!

لقد حاول كبار المسؤولين في إدارتين خدمت فيهما .. إدارة الرئيس السابق بيل كلينتون ، و إدارة الرئيس الحالي جورج بوش .. حاولوا أن يفعلوا ما يرونه الأفضل لأمريكا . ويتعين أن يدور النقاش حول نتائج عملهم و الوسائل التي اتبعوها ، و لا ينبغي أن يكون هذا النقاش حول دوافعهم . و عندما تأتي إلي الطريقة التي تعاطت بها الحكومة الأمريكية مع العراق سنجد أبطالاً قليلين في واشنطن و لكن هناك الكثيرين منهم علي أرض الميدان في هذه الدولة المضطربة. و عندما تأتي للحديث عن الحرب ضد الإرهاب فعلي الرغم من أن هناك الكثير من الأبطال في واشنطن ، و أماكن أخرى حول العالم ، فإن الحكومة نفسها هي التي ضلت طريقها و هي تسير نحو بغداد ، بعد أن أظهرت أداء رائعاً عندما اجتاحت معقل القاعدة في أفغانستان بعد ١١ سبتمبر . و قد اضطلعت وكالة المخابرات المركزية بمهمة ضخمة بشجاعة عظيمة و تصميم لا يصدق . ونحن لم نقرأ سوى القليل عن هؤلاء الأبطال.

إدارة بوش ضلت الطريق عندما زحفت نحو بغداد

بعد أداء رائع ضد معقل القاعدة في أفغانستان !!

و مع كل الأعباء التي كنت أنوء بها التي ، كل الضغوط التي كنت أتعرض لها كمدير للمخابرات المركزية ، فإنني لعلي يقين بأنني كنت الأفضل في الحكومة من حيث ما قدمته إبان عملي . و لظالما كانت أعظم لحظات السعادة بالنسبة لي هو ذلك التفاعل اليومي مع العاملين في وكالتي من رجال ونساء كانوا يتحدون الخطر و يخاطرون بحياتهم كل يوم لحماية أمتنا. لقد كانت لدي الفرصة لكي لكي أخدم بلادي ، و أبذل ما بوسعي لكي أحافظ عليها آمنة في وقت الشدائد. وقد لا أكون قد نجحت في كل المناسبات ، و لكن أشعر بالراحة لأنني كنت هناك في خضم الأحداث ، أوّدي ما علي ، و أناضل

لكي أفعل ما هو صواب .

فقط في الولايات المتحدة الأمريكية يمكن لسليل

أسرة مهاجرة بسيطة مثلي أن يصل لما وصل إليه !!

فقط في الولايات المتحدة الأمريكية ، يمكن لسليل أسرة مهاجرة أن يحظى بمثل هذه الميزة . و سوف أظل و للأبد شاكرًا لجميل جون و إيفانجليا تينيت (أبي و أمي) اللذين رحلا عن قراهم في اليونان لإعطائي هذه الفرصة.

حكمة أبي : قرب أصدقاءك منك .. واجعل أعداءك أقرب !!

بدا الأمر و كأنه فيلم من أفلام الجاسوسية .. التاريخ كان يوم ١٦ مارس عام ١٩٩٧ .. يوم أحد .. كنت بمطري في يوم اجازة نادر الحدوث ، عندما دق جرس التيلفون : " قابلي علي شاطئ " سي آند أو " قرب حانة أولد أنجلر في غضون ساعة " .. هكذا قال الصوت علي الطرف الآخر .. و كان يتحدث همساً تقريباً . " تعالى وحدك " .. كان هذا نص المحادثة الهاتفية .. المتحدث لم يعرف نفسه .. ولكنه كان على يقين من أنني سأكون هناك في الموعد .

كان صوت أنتوني ليك ، الذي كان قد تقاعد قبل شهرين من عمله كمستشار للأمن القومي الأمريكي ، عندما عينه بيل كلينتون كمدير لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

سر لقائي السري مع انتوني ليك الذي

حمل لي ما لم يخطر أبداً علي بالي !!

و عودة إلي عام ١٩٩٢ ، و بالتحديد عند بداية عمل إدارة الرئيس بيل كلينتون ، كان توني قد جعلني فرداً من أفراد فريق العاملين بمجلس الأمن القومي . و قبل ذلك كنت أعمل في فريق العاملين بمجلس الشيوخ ، و كنت وعلي مدى السنوات الأربع السابقة مدير أركان لجنة مجلس لشيوخ للاستخبارات . وخلال هذه السنوات استطعت إقامة علاقة شخصية و وظيفية حميمة مع ليك و نائبه ساندي بيرجر . وفي مايو ١٩٩٥ ، استعان بي جون دوش الذي كان علي وشك أن يصبح مدير المخابرات المركزية الأمريكية ، لكي أكون الرجل الثاني في الوكالة . وقد توطدت معرفتي بدوش عندما كان مساعد وزير

الدفاع حيث اعتدنا أن نسافر معاً للخارج للتعامل مع بعض المسائل الاستخباراتية الحساسة . و لكن الآن وبعد عام و نصف فقط من عمله ، كان دوش يستعد للرحيل عن السي آي آيه واستقر الرأي علي صديقي و رئيسي السابق توني ليك لكي يحل محله في رئاسة الوكالة . وقد كانت لدي توني كل المؤهلات اللازمة لاداء مهام الوظيفة الجديدة .. القدرات الاستخباراتية .. آكيومن وثقة الرئيس وقوة الشخصية . و قد كان توني مستشار مجلس الأمن القومي صاحب الكلمة العليا ، الذي لا ينازعه أحد في صلاحياته ، أو سلطاته . ولأنه قد لاحظ الخلل الذي عانى منه أداء المجلس أثناء إدارة الرئيس جيمي كارتر ، الأمر الذي أصاب معه هذه الإدارة بالشلل ، فقد عمل جاهداً كي لا يكرر مثل هذا الأداء الباهت أثناء إدارة الرئيس بيل كلينتون . وفي سابقة نادرة الحدوث في واشنطن ، لم يكن توني يجب الظهور كعادة من يشغلون منصبه ، كما أكد لفريق العاملين تحت رئاسته علي : " نحن كفريق يمكن أن ننجح معاً ، أو نفشل معاً " . . و قال لهم مؤكداً : " لم يأت أي منا إلي مكتبه في المجلس بالانتخاب . و يقيني أن توني ، وبفضل كل خصاله هذه ، كان الخيار الأمثل لكي يتولي رئاسة الـ " سي . آي . آيه " و قد أدركت - بدافع حب الذات - أن وصول توني لهذا المنصب سيمنحني القدرة علي الاحتفاظ بمنصبي كنائب لمدير الوكالة ، ذلك المنصب الذي كنت قد تعودت أن أحبه .

شلي طلب مني تشويه صورة ليك

لدعم رفض الكونجرس تعيينه مديراً للمخابرات!!

و عودة إلي جون دوتش سنجد أنه دخل في خلافات كثيرة مع فريق عمله ، و أدلي بأحاديث صحفية استفدت الإدارة ، و انتهى عمله باستقالة مفاجئة في شهر ديسمبر عام ١٩٩٦م ، و رغم أنه كان يأمل أن يسند إليه منصب وزير الدفاع رغم كل ذلك ، إلي أنه كان من الواضح أن مثل هذا المنصب سوف لن يكون من نصيبه ، فرحل عن الحكومة إلي غير رجعة . وبعد رحيله أصبحت أنا مدير الوكالة بالإنابة . و قد أدركت وقتها أنه يتعين علي أن أقوم بمهام مدير الوكالة و نائب مديرها لفترة وجيزة ، حتى يتم تأكيد تعيين ليك كمدير جديد لها . و لكن ما حدث أن موافقة مجلس الشيوخ علي تعيينه ، ظلت معلقة ولمدة أربعة شهور . و أدركت أن تأخر المجلس في التصديق علي تعيين توني كان السبب في طلبه مقابلي ، ولكنني لم تكن لدي أدني فكرة عن سر إصراره علي لقائي في مثل ذلك المكان غير الغريب .. كما كانت تعليماته لي بالتقدم وحدي أكثر الأمور التي تبعث علي الحيرة . فقد كان يعرف أن نائب مدير

المخابرات المركزية لا يذهب إلي أي مكان بمفرده. فقد كانت ترافقي دائماً حراسة أمنية كبري ، لا سيما و أن تهديدات الإرهابيين و المتربصين الآخرين لمسئولي الوكالة كانت حقيقية . و من هنا فقد شهدت الشهور الأربعة التي عملت فيها كمدير السي آي ايه بالإناابة تشديد الحراسة حولي بصورة غير مسبوقة. علي أية حال ، فقد حاولت أن التزم بسرية اللقاء كما طلب توني ، و استدعيت رئيس الطاقم المكلف بجراستي دان أو كنور ، الرجل الذي كنا نناديه بـ " دو ك " - الحروف الأولى من اسمه ، وكان مستعداً لكي يتلقي رصاصة في صدره لكي يدفع عني الأذي ، وطلبت منه الخروج لجولة قصيرة بالسيارة وحدنا دون حراسة.

وبعد جولة بالسيارة وصلنا قرب المكان ، و ذهبت بمفردي للقاء توني الذي كان ينتظري ، و بمجرد اقترابي منه أشار علي بالمشي ، و رغم أنني عايشت توني في أوقات عصيبة إلا أنني لم ألحظه أبداً في مثل هذه الحالة من الجدية و التحهم و الصرامة كما رأيته ذاك اليوم . و ما هي إلا مسافة لا تزيد عن نصف ميل تقريباً ، حتي جلسنا على أريكة تطل علي القناة .

بادرني توني بقوله : أريدك أن تعرف أنني عقدت العزم علي أن أبلغ الرئيس غداً أنني أعتذر عن قبول منصب مدير السي آي ايه ، و أنني أسحب اسمي كمرشح للمنصب .. إنها مهمة شاقة جداً .. إنهم يريدون الكثير جداً .. و الأمر لا يستحق العناء " . ولم يكن توني في حاجة لكي يفسر علي من يعود الضمير في كلمة " إنهم " . فقد انقلب عليه أعضاء مجلس الشيوخ ، و راحوا يماطلون في التصديق علي ترشيحه للمنصب . و أنه سئم الانتظار ، و لم يعد قلبه مستعداً لمواصلة القتال من أجل المنصب . خاصة بعد أن أمضي ثلاثة أيام من جلسات الاستماع العدائية من جانب بعض أعضاء لجنة الاستخبارات بالمجلس و اضطر لتحمل تهريجهم السياسي و غوغائيتهم.

دوش جعلني الرجل الثاني في الوكالة

وليك طلب من الرئيس تعييني مديراً لها بدلاً منه !!

و الحقيقة أن بعض أعضاء اللجنة كانوا يتربصون بتوني و في مقدمتهم سيناتور ريتشارد شلي النائب الجمهوري عن ولاية " الاباما " . و الذي كان قد طلب مني - كما استطاع إقناع كثيرين ممن عملوا من قبل مع توني - أن أشي بالرجل . و قال لي : " جورج إذا كنت تعرف أية قاذورات عن توني ليك فأنا متأكد من أنني أود معرفتها " . و قد جعلني هذا الموقف الشاذ في حيرة من أمري. ورحت أتساءل :

ألا يعرف هذا الشخص أن توني بليك صديقي و رئيسي السابق ؟ .. كما رحبت أفكر فيما جعله يعتقد أنني يمكن أن ألعب مثل هذا الدور ؟

و عودة إلي لقائي مع توني ، فقد كان ما ذكره لي لاحقاً في نفس اللقاء هو ما أصابني بالدهشة . فقد قال لي " عندما سأبلغ الرئيس غداً اعتذاري عن الترشح للمنصب فإنني سأبلغه بأن عليه تعيينك لكي تكون المدير الجديد لو وكالة المخابرات المركزية .

و علي أن اعترف بأنني ورغم شغلي منصب مدير الوكالة بالإناابة في ذلك الوقت ، فإنه لم يدر بخيالي أبداً أنني يمكن أن أحل محل توني كمرشح لمنصب المدير . فعلي أية حال كان عمري في تلك اللحظة لا يتجاوز الرابعة و الأربعين ، شخص غير معروف إلا لبعض دوائر استخباراتية بيروقراطية معينة . هذا هو السبب الأول في وقوع هذا الخبر علي كالصاعقة. السبب الثاني هو صحي المعتلة ، حيث كنت قد تعرضت لأزمة قلبية منذ أقل من أربع سنوات مضت .

ولا أستطيع أن أتذكر ما إذا كنت قد أجبته علي عرض توني ، إلا أن وجهي بالتأكيد عكس مشاعر الاستغراب و الدهشة التي كانت تعتمل داخلي . و هنا قطع توني صمتي بقوله : انظر .. انت تعرف المكان ، و تملك المهارات اللازمة ، و الرئيس يحبك ، و مجلس الشيوخ سيصدق علي تعيينك .. قل لي من يمكن ترشيحه غيرك .. كما أنك تحب عملك .

و ما كان مني إلا أن أجبته علي كلام توني بقولي : نعم .. و لكنني لأأريد المنصب بهذه الطريقة " . وفي هذه اللحظة كانت الدموع علي وشك أن تنهمر من عيني ، من فرط ما كان يعتمل في نفسي من عواطف و مشاعر تمتزج فيها الصدمة بعدم اليقين و الأسى بتشوش العقل . لقد كنت مثل مثل مبتدئ في أحد مسارح " برودواي " إكتشف لتوه أن أعز صديق له ، بطل العرض ، قد صدمته حافلة ركاب . و فكرت أن أقنع توني بعدم سحب ترشحه للمنصب ، و لكن كان من الواضح أنه قد اتخذ قراره بالفعل ، و عقد العزم علي الإنسحاب . ثم بدأت أعرب له عن شكوكي حول ما إذا كنت الشخص المناسب لشغل مثل هذا المنصب . و لكن توني كان علي يقين من أنني كذلك و لم يكن يريد أن يدخل معي في نقاش حول هذه المسألة . و بادرنى قائلاً : " أنظر .. أنا لم آت بك إلي هنا كي لكي أسألك رأيك في خططي و قراراتي .. طلبت منك المحيء لكي أطلعك عما أنا بصدد عمله . . سأسحب وسوف أبلغهم بأنه يتعين عليهم تعيينك مديراً لـ سي آي ايه .. المسألة بسيطة " .

وقد بدا توني قلقاً من أن يدخل الرئيس كلينتون في نزاع طويل مع شلي حول عملية تعيينه . و قال :

" شلبي يريد أن يقاتل لمنع تعييني حتي آخر قطرة من دمي . وسيكون هذا فظيماً بالنسبة للوكالة التي تقف الآن في أمس الحاجة لمدير "

وبعد أن تحدثنا قرابة نصف الساعة وجدنا أنفسنا نعود لنقطة البداية علي نفس المر لتتصافح أيادينا ويمضي كل منا لحال سبيله.

كلينتون دعاني للبيت الأبيض وفاجاني بالصحفيين

وإعلان خبر تعييني دون أي تمهيد!

و بمجرد عودتي لبيتي ، توجهت إلي غرفة المعيشة في الطابق الأرضي ، ورحت أفكر فيما حدث معي ، و كما أفعل دائماً في مثل هذه الأمور ، سألت زوجتي ستيفاني النصيحة .. هل يمكنني الاضطلاع بهذا المنصب ؟ .. هل أخوض التجربة ؟ .. ماذا سيعني هذا لأسرتنا ؟ .. لطفلنا جون مايكل الذي قد أنهى لتوه تعليمه الأساسي ، وفي وقت يحتاج أن يكون فيه أباه قريباً منه ؟ فمن واقع تجربتي كمدير سي آي إيه بالإناوبة ، كنت أدرك أن مهام المنصب ستأكل ساعات يومي بأكملها . و كانت ستيفاني دائماً أقوي سند داعم لي ، و علي مدي العامين المنصرمين تولدت لديها مشاعر الحب تجاه النساء و الرجال العاملين في سي آي إيه . و ستيفاني مثلي ذات أصول يونانية ، ولديها استعداد لأن تطوي تحت جناحها ، وفي اللحظة ، الآخرين . و من هنا أصبح العاملون في سي آي إيه جزءاً من أسرقتها الموسعة.

"جورج .. أنت تستطيع أن تفعل ذلك ، لأن الوكالة في حاجة إليك .. لا تقلق علي أنا و جون .. سنكون بخير و كذلك أنت " . هكذا كان رأي ستيفاني كما عبرت عنه قولاً.

وفي مساء اليوم التالي ، الاثنين ١٧ مارس أصدر توني بياناً يعلن فيه سحب ترشحه للمنصب ، مكوناً من ١١٠٠ كلمة ، و انتقد فيه تسييس وكالة المخابرات المركزية. وفي صباح يوم الأربعاء ، تلقيت مكالمة من جون بودستا نائب رئيس أركان البيت الأبيض ، يبلغني فيها بأن الرئيس يود تعييني مديراً لـ سي آي إيه . و كما فعل توني ، لم يبد بودستا كمن يسألني عن رأيي في ذلك . ودعاني للتوجه إلي البيت الأبيض للقاء الرئيس.

وهناك صعدوا بي إلي حيث الجناح الرئاسي الخاص ، حيث التقيت الرئيس كلينتون وساندي بيرجر خليفة انتوني ليك الذي حل محله كمستشار للأمن القومي و بودستا. وبينما نتبادل أنا والرئيس الكلمات المقتضبة ، كان بعض معاوني الرئيس من فريق العاملين بالبيت الأبيض يطلبون من زوجتي و ابني التوجه

للحاق بي في أسرع وقت ممكن .

و قبل أن يمضي وقت طويل كان عدد كبير من الصحفيين قد دعوا إلي البيت الأبيض ليستمعوا إلي الرئيس وهو يعلن عزمه تعييني مديراً لـ سي آي إيه . ومن حيث أف أف أنا و زوجتي و إبني في المؤتمر الصحفي للرئيس ، توجهت للصحفيين ببيان مقتضب أعرب فيه عن مشاعري التي تمتزج فيها الفرحة بالمرارة حيث أن صعودي كمدير للوكالة يتزامن مع تواري شخص أعشقه من كل قلبي هو توني ليك . و وعدت الرئيس ببذل قصارى جهدي ، ثم عدت إدراجي لاستئناف مهامي التي كنت بالفعل أزاولها كمدير بالإناابة .

و عندما أعود بذاكرتي للوراء ، أجد أنه من الغرابة أني لم أمر بمقابلة قبل حصولي علي وظيفتي الجديدة .. لقد كانوا يعرفونني بالطبع ، ولكن أحداً لم يسألني عما سأفعله بمجتمع المخابرات بعد تولي منصبتي ، أو ماهي التغييرات الذي سأدخلها ، أو ما أنوي عمله لاستعادة الروح إلي المكان الذي شهد تعاقب أربع مديرين للوكالة خلال خمس سنوات قبل تعييني ناهيك عن مرشحين للمنصب كانا قد سحبا ترشيحهما .

لقد كانت قصة تعييني مادة لصحف الإثارة التابلويد في نيويورك وخاصة المحي الذي نشأت فيه .. وكان مانشيت إحدي هذه الصحف يقرأ " الجاسوس الذي خرج من حي كويتز " . و راحت الصحف تنقل عن جيرانني من يعرب للصحف عن دهشته لقرار تعييني ، و قال أحدهم أنه ترعرع معي ، و أنني كنت في طفولتي كبير الفم ، و معروف عني أنني لا أستطيع أن أكنم سراً ، بينما قال آخر أنني كنت مميزاً ، وبنوا حكمهم هذا علي طريقة لعبي لـ " كرة العصا" التي كنت بطلاً للمدارس فيها " الزوجي " عام ١٩٩٤م .

صحف نيويورك جعلت تعييني مادة للإثارة

واتهموني بعد كتمان الأسرار في طفولتي !!

و لكن يبقى أفضل ما قيل في هذا الصدد هو ما جاء علي لسان أمي إيفاجليا تينيت . فرغم أنه قد مر علي وجودها في الولايات المتحدة حتى تلك اللحظة ٤٥ عاماً، إلا أن تأثير المجتمع اليوناني الأمريكي كان قوياً لدرجة أنها كانت لا تزال تتحدث الإنجليزية بصعوبة . قالت أمي لصحيفة " ديلي نيوز " :
لدي ابن في وكالة المخابرات الأمريكية ، و لدي ابن يعمل طبيب قلب . الأمر ليس سيئاً . والحقيقة أنني

رغم التقائي عشرات القادة والرؤساء والملوك والملكات والأمراء والحكام إلا أن أمي و أبي ظلا دائماً أحب الناس إلي قلبي .

كان أبي جون تينيت عصامياً لم تغيره الأيام ، منذ اليوم الذي ألقى به والده القاسي القلب به خارج منزله في سن الحادية عشرة . في البداية سافر إلي فرنسا ، حيث وجد عملاً في منجم فحم . وهناك حسم أمره بسرعة وتوصل بسرعة إلي قناعة بأن مستقبله لا ينبغي أن يكون في المناجم . و ما كان منه إلا أن رحل إلي الولايات المتحدة ، حيث وصل إلي جزيرة " اليس " قبل وقت قصير للغاية من فترة الركود الكبير.. وصل دون أن تكون في جيبه قطعة نقود معدنية واحدة ، أوصديق يمد إليه يد العون .. كل ما كان يعرفه هو أنه يريد أن يكون سيد نفسه ، و راع لأسرته ، و أنه في أمريكا يمكن للكرد في العمل أن يحقق لصاحبه ما لا يمكن تخيل تحقيقه في أي مكان آخر. وقد قام أبي مدفوعاً بإيمانه هذا بافتتاح كافيتريا صغيرة كما كان يفعل المهاجرين اليونانيين ، قبل أن يصبح أمريكياً تماماً ، مع احتفاظه بجذوره الأوربية . أما مثله الأعلى الذي كان ينظر إليه كبطل فقد كان شارل ديغول . و أتذكر أبي عندما اصطحبني و شقيقي بيل من حيث نقطن في " كويتز " إلي مانهاتن لكي نشاهد ديغول في سيارة ليموزين مكشوفة ، و أذكر أن والدي هتف أثناء مرور موكب الزعيم الفرنسي : تحيا فرنسا ، ولحمت ديغول يوجه نظريه تجاهنا . و هنا شعرت بأني في حضرة رجل عظيم ، وهكذا شعوري دائماً عندما أكون مع أبي .

كان أبي رجلاً رقيق القلب و أميناً و شديد الاهتمام بالشئون العالمية . وكانت مائدة عشائنا دائماً ملتقى للمناقشات السياسية و أخبار اليونان و طنه الأم ، و أمريكا و طنه بالتيني . وكانت المناقشات تتأرجح ما بين الحديث باليونانية و الحديث بالإنجليزية .

أما أمي فقد كانت قصتها أكثر إثارة مما عليه الحال بالنسبة لأبي . فأمي من جنوب ألبانيا و قد هربت منها بعد أن قتل الشيوعيون أخويها ، و انهار أباهما فيما بعد من فرط حزنه علي مقتلهم ، و لقي حتفه بعد أزمة قلبية . و قد تمكنت أمي بمفردها من ترتيب أمورها ، و لشق طريقها إلي ساحل الأدرياتيكي علي متن غواصة بريطانية ، عقب الحرب العالمية الثانية في حيث كانت الحدود مغلقة في ذاك الوقت. وقد شقت أمي طريقها في البداية إلي روما ثم أثينا ، وهناك كان من الممكن أن تمضي بقية عمرها لولا أن كان أحد أعمامها يعمل في المطاعم في نيويورك و كان العم لامبروس قد تحدث إلي والدي عن ابنة أخيه التي ولدت في قرية ألبانية التي لم تكن فقط جميلة و إنما أيضاً هربت لتوها من قرية قريبة من مسقط

رأس أبي . وربما كان لهذا الحديث هو الذي شجع أبي علي العودة إلي اليونان في عام ١٩٥٢ ، وملاقة أمي طيلة اسبوعين تزوجا علي أثرهما . وبعد اسبوع من الزفاف وصلت لكي تنضم لأبي للعمل في المطاعم في كافتريا عرفت باسم " تونيث سينشري دينر " . كانت هي " الخباز " و كان هو " الشيف " و في كويتز حيث جالية يونانية كبيرة ، راحت أمي بفخر تقوم برعاية أسرتها ، وتسهر علي رعاية أولادها .

و كانت أمي موهوبة في قراءة الناس و استقراء سمات شخصيتهم سواء من الأفراد العاديين أو من الشخصيات العامة . وكان بمقدور أمي أن تكتشف الكاذب من علي بعد ميل . وكان لأمي تأثير عجيب علي الآخرين ، وقد مزحت مع بعض الأصدقاء ذات مرة وقلت أن ياسر عرفات لو تعامل مع أمي لتحول إلي عجينة كعك طيبة في يدها . و أستطيع القول أنني وفي أشياء كثيرة ابن أبي . فقد كان رجلاً يمكن الوثوق به ، لا يغتاب الآخرين . وأثناء عملي كمدير لـ " سي آي ايه " كنت بين الفين و الفينة أشعر بالحنين إلي أبي ، و أتوق للجلوس معه كي ألتصق منه النصيح عندما كانت تواجهني مشكلة مستعصية ، رغم أنه كان قد رحل عن الدنيا في العام ١٩٨٣ م . وعندما في أوقات الشدة كان أخي بيل يقول لي دائماً : " فكر فيما عساه العجوز سيفعل لو مر بمثل هذا الموقف " . وقد كان أبي يؤمن بحكمة تقول " قرب أصدقاءك ، واجعل أعداءك أقرب " .

لقد كان أبي و أمي زوجين استثنائيين ، و أنا سأظل كل يوم من حياتي مديناً للشجاعة و التصميم اللذين حملاهما إلي هذه البلاد .. إنني أدين لهما بما جري معي في شهر مارس عام ١٩٩٧ م ، تلك التمشية التي لا تنسي علي الممر مع توني و التي انتهت بنقطة التحول هذه في حياتي.

ميزانيتنا لم تسمح إلا بتدريب ١٢ فرداً

بينما كان بن لادن يجند الآلاف!!

في عالم مثالي كنت سأكون مستعداً جداً لأداء مهمتي كمدير للمخابرات الأمريكية علي أكمل وجه ممكن . كما كانت الوكالة لديها من الموارد ما يجعلها تضطلع بمهامها الخاصة بمواجهة حمى الإرهاب التي ستتصاعد فيما بعد عبر حدود العالم . ومن الهجوم القاتل الذي تعرضت له ثكنات مشاة البحرية الأمريكية في بيروت عام ١٩٨٣ ، إلي تفجير طائرة ركاب شركة بان ام فوق لوكيربي باسكتلندا عام ١٩٨٨ الرحلة رقم ١٠٣ ، إلي تفجير مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣ ، إلي هجوم آخر بالمتفجرات

علي ثكنات عسكريين أمريكيين آخرين في منطقة الخبر بالظهران بالمملكة العربية السعودية .. في كل هذه الهجمات وجدنا بصمات حزب الله اللبناني و حركة حماس الفلسطينية وتنظيم القاعدة ، و آخرين . و عرفنا كيف أن الدول التي ترعي هؤلاء من ليبيا إلى العراق إلى إيران إلى أفغانستان .. عرفنا كيف تستخدم هذه الدول الراعية هؤلاء القتلة و المفجرين الإنتحاريين في حرب محمومة ضدنا نحن الأمريكيين و أصدقائنا و مصالحنا و مصالحهم في الخارج .

و صدقوني عندما أقول لكم هنا أننا لم يكن لدينا أدني شك أبداً في معرفة من هم أعداؤنا ، و لكن في العالم الذي كنا نعيش فيه ، في وكالة الـ سي آي ايه ورثت أشياء لم يكن من السهل علي الإطلاق تحملها.

ففي عام ١٩٩٧ ، لم يكن للوكالة آلية عمل منتظمة ذات موارد تكفي لأداء مهامها ، كما لم تكن مؤسسة تدار وفق مفاهيم راسخة . و لو كانت كذلك كان الكثير من الأمريكيين سيتدافعون طمعاً في تولي قيادتها . و ربما تكون عملية إسناد المهمة بالنسبة لي في الحقيقة قد جاءتني علي سبيل الخطأ أكثر من أي شيء آخر.

وقد وصفتني إحدى الصحف عند تعييني مديراً لـ سي آي ايه بأني " اختيار غير مناسب لإدارة المكان" و نقلت صحيفة " نيويورك تايمز " عن مسئول لم تفصح عن اسمه قوله : لا أستطيع أن أرشح لكم اسماً أفضل من تينيت . و في ضوء التحديات التي تواجه الوكالة " لا أستطيع أن أرشح لكم اسماً علي الإطلاق " . و ربما تكون التايمز هي التي أعطت اسمي ما يستحق من بين الجميع.

و عودة إلي ما كانت عليه الوكالة ساعة تعييني ، أقول أن أخطر مشكلة كانت تواجهها هي عدم استقرار قيادتها في أماكنهم لفترات كافية ، و بمعنى تعدد القيادات في فترات زمنية قصيرة . و يكفي أنني كنت المدير الخامس للوكالة في سبع سنوات . و لا يمكن لأي شركة حتى أن تنجح مع تغيير أو تقلب قيادتها في مناصبهم علي هذا النحو . و لهذا فقد كانت هناك طريقة غريبة للتعامل مع الأوامر من جانب معظم كبار مسؤولي الوكالة الذين تقع مكاتبهم في الدور السابع . هذه الطريقة مفادها : ما لم تكن راض عن الأمر الصادر إليك فقط انتظر لبرهة حتى يرحل الشخص الذي أصدر إليك هذا الأمر.

عدد عملاء " أف . بي . أي " في نيويورك وحدها كان يفوق

عدد عملاء " سي . أي . ايه " في جميع أنحاء العالم !!

ومع ذلك فقد كانت المشاكل أعمق من أن تقتصر عند عملية تقلب القيادات . فأتثناء التسعينيات كانت الحكمة التقليدية تقول أننا ربحنا الحرب الباردة و أنه قد حان الوقت لجني ثمار أو مكاسب السلام . وهذه الفرضية لم تكن فقط خاطئة - نظراً لأن سلطة إعلان الحرب - ببساطة - كانت تنسل من أيدي جيوش الدول النظامية ، لتكون بأيدي جيوش غير نظامية ، و من الصواريخ العبرة للقارات ، إلي مواد نووية بحوزة الأشخاص ، و حاويات مادة الجمره الخبيثة (أنثراكس) - بل إن عملية جني " ثمار السلام " تلك كانت تنهار و تتلاشى أمام ضعف الأنشطة التجسسية نظراً لما كانت تعانيه الوكالة ، و في وقت كنا في أمس الحاجة القيام بهذه الأنشطة علي الوجهه الأكمل . لقد فقدت جميع الأجهزة الاستخباراتية وليست " سي . آي . إيه " فقط مليارات الدولارات التي كان من المفترض أن تضخ إليها كتمويل لأنشطتها ، و تم تقلص العمالة فيها لهذا السبب بنسبة ٢٥% تقريباً . و لا يمكن أبداً أن تنجح أي مؤسسة عندما تقلص مواردها البشرية بهذا القدر . وأخطر ما في الأمر هنا هو اضطرار الوكالة لوقف تجنيد عناصر بشرية جديدة . و بهذا فقد حرمت الوكالة لمدة نصف عقد من الزمان (٥ سنوات) من انضمام عناصر موهوبة إليها ، في الوقت الذي تركتها فيه عناصر كثيرة جداً من أصحاب الخبرة و الكفاءة .

و حتى أئين عمق المحنة سأضرب مثلاً بما حدث في عام ١٩٩٥ ، عندما كنت نائب مدير سي آي إيه . ففي الوقت الذي كنا نعقد فيه دورة تدريبية للعملاء الجدد من جامعي و سارقي المعلومات ، كان عدد من يتلقوا الدورة عبارة عن ٦ " ضباط ميدانيين " تعبير نطلقه عن نساء و رجال الوكالة الذين يقومون بتجنيد العملاء الأجانب لسرقة المعلومات و " ٦ ضباط مخبرين " تعبير يشير إلي لا يجمعون المعلومات بقدر ما يبلغون عما جمعه المكلفون بذلك ، و لا يمكن أن تدار وكالة و في دورة كهذه يكون عدد المتدربين صغير هكذا . و يكفي أننا في الوقت الذي كنا ندرّب فيه هذه الحفنة سنوياً ، كان تنظيم القاعدة يدرّب آلاف الإرهابيين الجدد في معسكراته في أفغانستان و السودان و أماكن أخرى .

أخطأ رؤساؤنا عندما استرخوا بعد الحرب الباردة ونسوا

أن الحرب أصبحت بأيدي جماعات جيوش غير نظامية !!

و حتي لو كانت لدينا في منتصف التسعينيات الأموال ، و الإرادة ، و الدعم السياسي ، لنهوض ببرامج تدريبنا ، فإننا كنا سنفتقر مع ذلك إلي البنية التحتية اللازمة لمؤازرة مثل هذه البرامج . و في الوقت الذي

تدهور فيه مستوى برامج تدريباتنا ، كانت الدورات الخاصة بها تجري في مبان تنتمي لزمن الحرب العالمية الثانية ، أما أماكن إعاشة مدربيننا و عائلاتهم كانت أسوأ حتى مما عليه الحال عندما يتم نشرهم للعمل في دول نامية . و لم يكن أفضلنا و أكفأنا و أكثرنا ألمعية في هذا الصدد يكلف نفسه بتعليم ضباط المستقبل . كما كانت برامج تجنيدنا أيضاً تترنح . و يكفي أن كل إدارة من إدارات الوكالة كانت لديها برامج تجنيدها الخاصة بها ، مع ضعف مستويات التنسيق الواجبة مع الإدارات الأخرى في هذا الصدد ، أو عدم وجود تنسيق من أي نوع علي الإطلاق .

و مع ذلك ، فمن بين أكثر المعوقات التي كانت تحول دون عمل الوكالة علي النحو الصحيح ، و تمكنت من رصدها في رحلة استكشافي الأولى للسليبات الموجودة هي : أن عدد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي " أف . بي . آي " في مدينة نيويورك وحدها يفوق عدد عملاء وكالة المخابرات المركزية " سي . آي . إيه " في جميع أنحاء العالم! و بالإضافة إلي ذلك ، فقد كانت قدرتنا علي تحليل المعلومات قد تآكلت و وصلت إلي مستوي ينذر بالخطر . فقد ترك محللينا من أصحاب الكفاءات ، والمتمرسين في مجال تحليل المعلومات الخاصة بقضايا و مشكلات و مناطق جغرافية معينة مواقعهم الميدانية و تحولوا لمديرين .. و هناك في عالم الجاسوسية و الاستخبارات ما يعرف بـ " مبدأ بيتر " و يقول : أفضل المحللين عادة ما لا يكونوا أفضل المديرين! و في ضوء كل هذا ، فإنه لم يكن من المثير للدهشة أن تجد معنويات العاملين بالوكالة و قد أصبحت في الحضيض . و لا تزال الـ " سي . آي . إيه " تتن من جراء عمليات التجسس عليها من جانب ضباطين موثوق بهما من رجالها هما الدريتش إيمز في عام ١٩٩٤ ، و هارولد نيكلسون في عام ١٩٩٦ ، و الذين خاننا بلديهما و زملائيها ببيعهم أسرار خطيرة للروس . كما تعرضت الوكالة لانتكاسة من جراء الادعاءات الكاذبة من أن بعض أفرادها قد تورطوا في بيع كوكابين للأطفال في كاليفورنيا . و رغم كذب الادعاءات إلا أن محاولة دحضها قد جعلت للدخان المتصاعد من هذه القصة السخيفة أرجلاً!

تكنولوجيا المعلومات مرت علينا مرور الكرام دون أن نستفيد منها!!

في الوقت نفسه ، كان مسئولو الوكالة من الصف الأول و الثاني يعيشون حالة من الخوف إزاء احتمالات استدعائهم أمام الكونجرس أو المحكمة للدفاع عن أفعالهم . و الغريب أن الإدارات المتعاقبة كانت تطلب منهم إظهار قدر من المخاطرة و الإقدام ، و لكنها تتخلي عنهم عند وقوع خطأ ما ،

و تتركهم وحدهم يواجهون الإهانة و الإذراء . و الفصل و العقاب المالي .
 هناك أمر آخر يتعلق بتكنولوجيا المعلومات التي كانت تفتقر إليها الوكالة ، حتى أن الأدوات المعلوماتية
 التكنولوجية التي كان ضباطنا يستخدمونها تعود إلى منتصف القرن العشرين ، أكثر مما خرج به علينا
 القرن الواحد و العشرين من منتجات تكنولوجية في هذا الصدد مرت علينا للأسف مرور الكرام!
 و فوق كل ما سبق ، يمكن القول أن الوكالة كانت تفتقر إلى استراتيجية واضحة و متفاهم عليها
 و مبنية علي أسس سليمة . فلم تكن هناك خطة طويلة الأمد متكاملة و متماسكة و متناغمة . و كان
 إيجاد مثل هذه الاستراتيجية بالنسبة لي مسألة أساسية . لذا ن كان ذلك هو شغلي الشاغل منذ أول يوم
 لي في منصبي الجديد كمدير للوكالة .

و الحقيقة أنني كنت قد بدأت في تقييم عمل الوكالة و رصد سلبياتها و ما تعانیه من معوقات قبل تعييني
 مديراً لها بكثير ، و بالتحديد قبل عامين عندما كنت أعمل في منصب نائب المدير ، ثم عملي كمدير
 بالإنابة . و بعد أن أصبحت مديراً لم يعد بمقدوري الاختباء خلف مديري أو رئيسي في العمل ، لأنني لم
 أعد نائباً .

وقد أدركت أن أهم شيء لا بد من البدء به كمدير هو استعادة الوجه الإنساني للوكالة .. التزام القادة
 بالإنصات و الاهتمام بكل العاملين تحت رئاستهم ، و ليس فقط أولئك الذين يحتلون المناصب الكبرى .
 و قد تعلمت أن أعمل بحكمة أبي : " عندما تهتم بالناس ستجد الناس يهتمون بك " .

وكالة لا يعيش لها مديرون .. وكانت القاعدة لا تنفذ الأمر

.. فالمدیر حتماً سيرحل قريباً !!

و كان أول ما فعلته هو تشكيل هيكل قيادي يحظى بثقة كل هؤلاء العاملين . و لم أجلب من الخارج
 إلا العدد القليل ، فقد كانت رسالتي لمن في الوكالة هي : من يساعدنا علي أداء ما نريد و سنجده في
 المكان الذي نحتاج إليه فيه سيبقى بيننا .

و حتي أوثق علاقة و كالتي بالعسكريين ، استعنت بالجنرال جون جوردون من سلاح الجو الأمريكي
 ليكون نائبي .

و لتدعيم إدارة العمليات قمت بالاستعانة بضابط عبقرى متقاعد هو جاك داوونج ، الذي خدم في
 موسكو و بكين ، و أعطت عملية استدعائي له إشارة قوية إلي أننا بدأنا نعود من جديد للأسس المهمة

و اللازمة لعمليات الكشف عن الأسرار و التي لا غنى عنها لحماية أمتنا .
وقمت بتعيين جون ماكلوغلين ، الذي أمزح معه دائماً بقولي إنه أكثر الرجال أناقة في أمريكا ، رئيساً
لوحد تحليل المعلومات بإدارة الاستخبارات . وقد أضفي وجود جون قدراً من الأمانة و الجودة و
المصدقية لعملية تحليلنا للمعلومات لطالما كنا نفتقد إليه . و علي فكرة جون يجيد أيضاً الألعاب السحرية
و كانت موهبته في هذا المجال تجعله ساحراً عالمياً و كان يكنى بـ " مارلين " ولمنصب المدير التنفيذي
للكالة استعنت بـ ديف كاري الرئيس السابق لمركز مكافحة الجريمة و المخدرات بالوكالة .
و مع فريق قيادي تم الانتهاء من تشكيله و بدء عمله في عام ١٩٩٧ م ، ويتكون من هؤلاء و آخرين
بعضهم من خارج الوكالة ، حدث أننا كنا نجتمع بأحد مباني الوكالة السرية غير البعيد عن واشنطن
وقال شخص ما " أننا كنا نقف علي رصيف ميناء مشتعل و ما لم نسارع بالعمل لإطفاء الحريق ، فإن
الوكالة ستغرق في البحر وجميعنا معها " . و كان تعبير " رصيف ميناء مشتعل " يعبر و بحق عن موقف
الوكالة وقتذاك .

و بحلول ربيع عام ١٩٩٨ ، كانت لدينا خطة - وثيقة أطلقنا عليها عبارة " المسار الاستراتيجي "
و جزء رئيسي منها يحدد طبيعة و نوعية و مستوى الضباط الذين نحتاج لوجودهم بالوكالة بحلول عام
٢٠١٠ م .

و في السادس من مايو ووقت أمام ٥٠٠ من العاملين بالوكالة لأحدثهم عن " الرصيف المشتعل " بينما
شاهدي آلاف آخرين من خلال دائرة تليفزيونية مغلقة و قد تشكك كثيرون فيما سمعوه مني ، و كانت
لهم مبرراتهم بالطبع . فعلي أية حال لقد شهد معظمهم قيادات كثيرة تأتي و تذهب ، فمن أين لهم أن
يعرفوا أنني سأستمر في عملي؟ و أخذت أحدثهم عما أفعله لتصحيح الأوضاع في الوكالة ، و محاولة ضخ
المزيد من الأموال إلي خزينتها ، و خاصة لمواجهة تعاظم أعباء مكافحة الإرهاب .

لجأت لرئيس مجلس النواب الجمهوري لدعم وكالتي

فانقلب علي بعض أفراد إدارة كلينتون الديمقراطية!!

و لكن مع نهاية عام ١٩٩٨ م طالبت الإدارة الأمريكية بزيادة مخصصات الوكالة المالية بمبلغ يزيد عن
ملياري دولار سنوياً و علي مدي السنوات الخمس التالية ، و لكن لم تمنحنا سوي جزء ضئيل من هذه
الزيادة .

و لذلك فقد شعرت بأن نقص مواردنا المالية قد أحبطنا مما دفعني للجوء لحلقة قيادتي الخاصة. فمع أنني كنت مجرد ضابط حكومي في إدارة الرئيس بيل كلينتون الديمقراطية ، إلا أنني كنت قد وطدت علاقتي بـ نويت جينجريتش الجمهوري الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لمجلس النواب ، الذي كان مؤمناً بأن المخبرات في حاجة إلي دعم . وبفضل نويت ، ومن خلال تمريره مخصصات إضافية للوكالة عبر الكونجرس ، في السنة المالية ١٩٩٩ ، تم منحنا و للمرة الأولى زيادة ملحوظة في عملية تمويلنا .

و قد أدي تحالفي الـ " الخارج عن النص " مع رئيس المجلس الجمهوري إلي انقلاب بعض أعضاء إدارة كلينتون ضدي .

ورغم أن الرئيس كلينتون كان بصفة عامة داعماً و مسانداً لمهمتنا إلا أن التمويل اللازم لم يكن مع ذلك يأتي . و للأسف فإن معظم الأموال الإضافية التي حصلنا عليها عام ١٩٩٩ كانت لسنة واحدة فقط و لم تستمر في السنوات اللاحقة .

و قد قمت أولاً بافتتاح مكتب تجنيد مركزي و استطعنا معه و مع بعض الأموال التي توفرت بتجنيد أعداد جيدة من العملاء ، ثم قمت بالتركيز علي التنوع العرقي للعملاء ، واحترام مبدأ التباين بين العاملين من حيث أصولهم ، عكس ما كان يحدث فيما سبق . و لي يعود الفضل أيضاً في تعظيم محصلة العمل الميداني . و كذلك قمت بالارتقاء بعملية تحليل المعلومات ، و أشعت أجواء الاستقرار في الوكالة ، و قمت في شهر مارس عام ٢٠٠١ بتعيين إيه . بي . كرونجراد و كنا نناديه " بزي " مديراً تنفيذياً للوكالة ، و شهد الجميع بكفاءته العالية ، و مساهماته الكبيرة في إدارة الوكالة إدارياً ، و مع الوقت لم يعد العاملون مضطربون لاحتمال رحيل قيادتهم عنهم في أية لحظة . كما استعنا بشركات خاصة لتطوير تقنياتنا ، من خلال ما توفر لنا من أموال .

بنيت أساس الوكالة من جديد و٤ من طوابقها الـ٧

تجاوزت حد الكمال و الوقت لم يمهلني لاستكمال ما بدأت به !

و في شهادتي أمام الكونجرس قبل أن أترك مناصبي في عام ٢٠٠٤ ، قلت إننا في قمنا بتخريج أكبر عدد شهدته أمريكا في تاريخها من العملاء السريين المدربين علي أعلى المستويات ، و لكنني أوضحت في شهادتي أننا ما زلنا في حاجة إلي ٥ سنوات أخرى لكي نصل بقطاع العملاء السريين للوكالة إلي المستوى الذي نريده . فعندما تكون الوكالة قد عانت عقداً كاملاً من الإهمال و التجاهل فإنك تكون

في حاجة لفترة أطول من الزمن لكي تنتشلها مما هي فيه .
و إذا سألتني عن المحصلة النهائية ، أستطيع أن أقول لك لقد قمت من جديد ببناء أساس الوكالة والطوابق الأربعة الأولى من طوابقها السبعة .. لقد كنا أكثر من رائعين ، أو بمعنى آخر تجاوزنا حد الكمال .

لقد حققنا تقدماً ، و بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ، و حصولنا علي ما كنا نطالب به من اهتمام و دعم ، بدأنا نجني ثمار ما كنا نخطط له قبلها ، ولكن الأزمات الدولية المتصاعدة لم تكن لتنتظرنا حتى نستكمل ما بدأناه .

في دهاليز الإدارة الأمريكية : الكلمات التي تعبر عن الحقيقة نادراً ما تنطق !!

وجدت نفسي " دانة " انطلقت لتوها من فوهة مدفع و علي قراءة تلال من التقارير ومقابلة مئات الأشخاص !!

قال لي جاك ديفين ضابط الخدمة السرية المحنك ، و الذي عمل في " سي . آي . إيه " كنائب مدير العمليات بالإنابة ، أثناء حقبة جون دوتش .. قال لي ذات مرة : " جورج .. شخص ما سوف يطلق رصاصة اليوم في شمال العراق ، و سيكون عليك تحديد المكان الذي استقرت فيه هذه الرصاصة بعد عامين من الآن " . و كما كان يتعين علي أن أتعلم فيما بعد ، فإن الكلمات التي تعبر عن الحقيقة نادراً ما تنطق .

و في دهاليز كالتى نعمل فيها تأتي أشياء كثيرة من زوايا مختلفة ، لدرجة أنه يكون من غير الممكن بالنسبة لي أن أقتفي أثر كل شيء . و ما يبدو غير ذي قيمة في اللحظة الآنية ، قد يكبر مع الوقت ليصبح شيئاً هائلاً ، بينما تجد ما يبدو لك هائلاً في التو و اللحظة يمكن أن يتلاشي . مرور الوقت في غياهب الضوضاء المحيطة . و بالنسبة لأناس يعملون في مجالنا لا توجد تلك الحياة التي يمكن التنبؤ بأحداثها .

في يوم كغيره من أيام عملي كمدير لـ " سي . آي . إيه " شعرت و كأنني طلقة مدفع انطلقت لتوها من فوهته . الناس كانوا دائماً يقفون في طوابير ، يريدون مني اهتماماً مطلقاً ، لا تشوبه شائبة حول عشرات المسائل ، التي لا ترتبط ببعضها البعض . و كنت أخرج من اجتماع لأدلف إلي آخر ، مع أناس يدفعون إلي يدي ملخصات لكتب غليظة ، ثم ينتزعونها مني ، قبل أن أهضم أول صفحة منها .

و قد ابتلعت مهام منصبى أيضاً مساحة تواجدى بين أفراد عائلتى .. زوجتى ستيفانى و ابنى جون مايكل . كما أن بيتى المتواضع لم يعد كما كان ، فقد أصبح الدور الأرضى فيه مقراً لأفراد حراستى الأمنية ، الذين أصبحوا جزءاً من عائلتى ، بعد أن ألفنا وجودهم بيننا.

مدير المخابرات فى أمريكا منصب " كارثى .. "

وتقديمه الموجز الاستخباراتى اليومى لبوش مهمة قاتلة!!

أما ساعات عملى فلم تكن تبدأ فى الصباح الباكر كالمعتاد ، و إنما كانت تبدأ - فعلياً - الساعة العاشرة من ليل اليوم السابق ، حيث يقوم أحد معاونى ، من حيث يتخذ مكانه فى الدور الأرضى بمترلي ، بكتابة الموجز الاستخباراتى اليومى ، الذى يرفع للرئيس فى الصباح التالى كما هو متبع . و كان هذا الموجز ، أو " الكتاب " كما كنا نطلق عليه ، هو أهم منتج يصدر عنا. و كنت أقضى الساعات .. أراجع .. أدقق .. أضيف .. أحذف و أنقح ، حتى يكون هذا الموجز كما يجب عند رفعه للرئيس . و فى الصباح ، كنت أنهض من نومى فى الساعة الخامسة و خمس و أربعين دقيقة ، قبل أن أغادر بيتى - كما جرت العادة - فيما بين الساعة السادسة و الربع و السادسة و النصف . و فى السيارة ، حيث يوجد هاتفان مؤنمان ، كانت الاتصالات مع رجالى و قادتى لا تنقطع ، و كنت أحياناً أجد بعض الصعوبات ، لتداخل الموجات ، بسبب الأجهزة الموجودة بسيارة حراستى السرية اللصيقة.

و أثناء عملى بإدارة الرئيس بيل كلينتون ، كنت أتوجه مباشرة إلى مكنتى ، بمقر الـ " سي آي إيه " فى " لانجلي " ، فى الوقت الذى كان أحد معاونى يتولى - كل صباح - مهمة رفع الموجز الأمنى ، الذى أعدده للرئيس كلينتون. و لكن عندما تولى الرئيس جورج بوش الحكم ، طلب منى تقديم الموجز بنفسى بدلاً بيد ، و من هنا كان على تغيير وجهتى ، و شق طريقي - بصعوبة - كل صباح - إلى البيت الأبيض ، بسبب الازدحام المرورى.

و كان من عاديتى أن أدع كاتب موجز الرئيس يجلس فى المقعد الخلفى من سيارتى ، بينما أجلس أنا فى الأمام ، على عكس ما يفعله كبار المسئولين . و كان يطلق على مقعد كاتب الموجز (مقعدى) عبارة " مقعد الحظ " .. و كنت أمزح - أحياناً - بقولى إن الإرهابيين عادة ما يستهدفون هذا المقعد ، الذى اعتادوا رؤية كبار الشخصيات يجلسون فيه.

وفي البيت الأبيض ، جرت العادة أن أقدم الموجز الاستخباراتي للرئيس بوش في الغرفة رقم ٣٤٥ ، التي تطل علي " شارع بنسلفانيا " ، و لكن بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، تم نقلنا إلي غرفة بعيدة عن الشارع ، للحد من مخاطر التعرض لهجوم إرهابي بالقنابل!

و استطيع القول أن تقديم هذا الموجز لبوش كل صباح كان مهمة قاتلة بالنسبة لي ، حيث أمضي الليل في كتابته ، ثم اذهب للرئيس لمناقشته ، ثم انتقل أنا و الرئيس إلي المكتب البيضاوي ، لبدأ الاجتماع الأمني اليومي بحضور نائب الرئيس ديك تشيني ، و مستشارة الأمن القومي الأمريكي كوندوليزا رايس ، و أندي كاردر رئيس أركان الرئيس . و كان الاجتماع يتم بحضور الجميع اللهم إلا إذا كان أحد منهم خارج البلاد.

بوش نقل قاعات اجتماعاتنا المطلة علي شارع بنسلفانيا

تحسبا لهجوم بالقنابل علي البيت الأبيض بعد سبتمبر!!

و حدث بعد ١١ سبتمبر أن تمت توسعة هذا الاجتماع ، حيث اصبح يضم أيضاً جون اشكروفت المدعي العام ، و روبرت مولر مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي " أف . بي . آي " ، و توم ريديج وزير الأمن الداخلي ، بهدف مراجعة آخر تطورات التهديدات الإرهابية و ما يمكن عمله للحيلولة دون وقوعها .. و كنا عادة ما ننتهي من هذا الاجتماع في الساعة التاسعة صباحاً. و لم يتوقف الأمر بعد ١١ سبتمبر عند حد هذا العرض الصباحي ، فقد كان هناك اجتماع آخر للجنة جديدة هي " اللجنة الأمنية العليا " و ترأس مستشارة الأمن القومي اجتماعاتها ، ما لم يقرر الرئيس الحضور ، و كانت هذه الاجتماعات تعقد في غرفة بالطابق التالي للطابق الذي يقع فيه للمكتب البيضاوي ٣ مرات أسبوعياً ، و بالتحديد أيام الاثنين و الأربعاء و الجمعة.

و بعد أداء هذا الواجب اليومي ، و معرفة ما يمكن عمله في بعض ما تضمنه من مسائل مهمة ، أذهب للوكالة في حوالي العاشرة صباحاً ، إذا كنت سعيد الحظ ، لأتابع كل صغيرة و كبيرة ، ثم أعاود الكرة و أسهر علي كتابة موجز اليوم التالي .. و هكذا!

و في مكنتي أجد مساعدي الخاص دوتي هانسون الذي عمل معي لمدة طويلة ، و قد وضع علي مكنتي قائمة بالمكالمات التي جاءت في غيابي ، و تحتاج الرد عليها ، أو الاهتمام بفحواها ، و قائمة أخرى بأسماء قياداتي و ضباطي بالوكالة ، الذين يريدون رؤيتي لأمر مهمة عاجلة . و عادة ما كان دوتي

يضطر لتغيير جدول مواعيدي ثلاث أو أربع مرات في اليوم الواحد .
 وناهيك عن متابعتي أنشطة ١٥ وكالة فرعية تابعة لـ " السي آي ايه " ، كان علي أن أحافظ علي قنوات الاتصال مفتوحة مع مديري و كبار مسئولي أجهزة استخبارات الدول من شتى أنحاء العالم . و كان علي أن التقى بوفود هذه الأجهزة ، و خاصة هؤلاء الذين يساعدوننا ، و استمع إليهم ، و أحياناً أتلقى منهم هدايا - نيابة عن حكومة الولايات المتحدة - تمر أولاً علي أجهزة الفحص الأمني ، ثم يتم تسجيلها ، كما القاعدة ، و بعضها كان يخزن ، و بعضها كان يباع في مزاد ، يخصص دخله للوكالة .
 كما كان الرد علي طلبات ، و أحياناً أوامر الكونجرس جزءاً مهماً و كبيراً من مهامنا . و قد انخرطت في المئات من جلسات الاستماع المغلقة ، و قمت بالرد علي المئات من طلبات الإحاطة ، أثناء سنوات عملي . ليس فقط أمام لجنتي الاستخبارات التابعتين لمجلسي الكونجرس النواب و الشيوخ و إنما أيضاً أمام " نصف دسنة " من اللجان الأخرى ، التي كانت تعتبرني مدين لها بجزء من وقي .

لولا بيرجر لأطاح كلينتون برأسي بعد قصف سفارة الصين

في بلجراد رغم أن الجنرال ويسلي كلارك أخطأ أيضاً!!

و كنت بين الفين و الفينة ، أريد الخروج و استنشاق الهواء بعيداً عن المكاتب ، و كنت أتجول في المساحات الكبيرة المحيطة بالمبنى الرئيسي ، في مساحة تصل إلي ٢٥٠ فدانا تضم مبانٍ أخرى ملحقة .
 و مما أذكره أنني و في بداية عملي كنت أتجول ، و دخلت بالصدفة أحد المباني ، و كانت هناك موظفتان تتجاذبان أطراف الحديث ، فقلت لإحدهما : ماذا تعملين ؟ .. فصرخت في وجهي : من أنت بحق الجحيم؟! .. و بينما تلتفت إلي و تتفحصني جيداً ، فإذا بمعالم وجهها تتغير ، و لوها يمتقع ، و فجأة بادرتني قائلة : أوه .. أوه أنت!!

لكن هناك دائماً مواقف لا تنسى في حياة أي مسئول كبير ، و من هذه المواقف التي مرت بي ، و كاد الرئيس بيل كلينتون يطيح برأسي فيها ، ما حدث في أوائل شهر مايو عام ١٩٩٩م إبان حرب البلقان .
 فقد طلبت منا وزارة الدفاع الأمريكية " البنتاجون " تحديد الأهداف المطلوب تدميرها هناك ، و كان من بين أهدافنا " مديرية الإمداد و التموين اليوغوسلافية ، في بلجراد ، حيث توصلت تقاريرنا إلي أنها تستخدم كمخازن سلاح ، و يتم من خلالها شحن مكونات صواريخ إلي دول مارقة مثل ليبيا و العراق . و لكن للأسف كانت إحدائيات الهدف الذي حددناه خاصة بموقع آخر قريب منه لم يكن سوى

سفارة الصين في بلجراد.

وقد فوجئنا بهذا الخطأ الذي ارتكبناه عندما اتصل بي مساعدتي مايكل موريل في منتصف الليل ، عشية سفري إلى لندن ، لأشارك في اجتماع مديري أجهزة استخبارات دول الكومنولث ، ليبلغني أن مركز عمليات الوكالة تلقي مكالمة من الجنرال ويسلي كلارك قائد القوات الأمريكية في البلقان يسأل فيها : لماذا طلبت مني الـ سي.آي.إيه " قصف سفارة الصين في بلجراد ؟

والحقيقة أننا كنا بالفعل قد اكتشفنا الخطأ في إحداثيات الموقع ، و عندما أبلغنا البنتاجون ، أبلغونا بأن المقاتلات الأمريكية انطلقت و لم يعد في الإمكان عمل أي شيء.

و في الوقت الذي لا أنفي فيه مسئوليتنا عما حدث ، إلا أن الجنرال كلارك مسئول أيضاً عما حدث لأن المفروض أن لديه قائمة بـ " الأهداف المستثناة " من القصف ، و تضم من بين ما تضم السفارات و المدارس و المستشفيات ، و خرائطها و إحداثيات مواقعها ، و يفترض أن يراجع أهدافنا و يطابقها بما لديه بالقائمة المستثناة للتأكد قبل ضربه . و لكن ما حدث أن قاعدة بياناته إما لم تحدث لتشمل إحداثيات موقع سفارة الصين ، أو لم تتم عملية التأكد من وضعية الهدف المطلوب تدميره .

و قد أدى القصف الأمريكي لسفارة بكين ، و الذي لقي فيه ٣ أشخاص مصرعهم ، و أصيب فيه ٢٠ آخرون إلى أزمة دولية خطيرة . و بينما أحاول مع نائبي جنرال سلاح الجو جون جوردون تقييم الموقف كان مسئولون بوزارة الدفاع لم تحدد أسماءهم قد أجروا عشرات المكالمات مع جميع مسئولو الإدارة لإبراء ذمتهم من قصف السفارة باعتبارنا المذنبين ، كما أبلغوا وسائل الإعلام بأن الخطأ جاء من جانب وكالة "سي.آي.إيه" التي تستخدم خرائط و إحداثيات مواقع غير صحيحة . و بالطبع كان هذا جزء من القصة ، و لم يشر أحد للخطأ الذي ارتكبته قيادات الجنرال ويسلي كلارك!

وفي اليوم التالي لقصف السفارة ، و فور هبوط طائرتي أرض المطار بلندن ، حتي تلقيت مكالمة هاتفية من ساندي بيرجر مستشار الرئيس كلينتون للأمن القومي يقول لي فيها : من الأفضل لك أن تعود علي الفور إلي واشنطن .. أنا أحاول إنقاذ كرسيك."

و بالفعل استدرت و صعدت الطائرة من جديد و عدت لأمريكا لأواجه الأمرين . فقد كنت محل تهكم الصحف ، و مادة للكاريكاتور الساخر ، و الانتقادات اللاذعة . وكانت هناك ضغوط كبيرة علي البيت الأبيض للإطاحة برؤوس كبيرة لاحتواء الأزمة ، و بالطبع كانت رأسي أنا المرشحة الأولى . و مع ذلك ، و بمساعدة ساندي بيرجر ، رفض الرئيس كلينتون تحميلي مسؤولية ما حدث ، و ساندي

حتى أتجاوز جلسة الاستجواب أمام الكونجرس . و قد تذكرت هذا الحدث الجلل مرة أخرى عندما بعثت سفارة الصين ببغداد في بداية غزو العراق ببرقية لنا تتضمن خريطة إحدائيات موقعها في العاصمة العراقية ، و تطلب فيها نقلها لوزارة الدفاع الأمريكية ، حتى تحدث قاعدة بياناتها ولا تقصفها طائراتها كما فعلت في بلجراد!!

الجاسوس جوناثان بولارد ومفاوضات السلام بين عرفات وإسرائيل

كنا متأكدون في "سي. آي. ايه" أن بولارد لم يتجسس

حبا في إسرائيل وأنه كان مستعداً لبيعنا لأي دولة تدفع له !!

" كشفت بعض المصادر عن أن مدير وكالة "سي. آي. ايه" جورج تينيت أبلغ الرئيس بيل كلينتون في الشهر الماضي بأن استمراره في منصبه كمدير للوكالة في حالة إطلاق سراح الجاسوس الإسرائيلي جوناثان بولارد كجزء من اتفاق سلام للشرق الأوسط سيكون أمراً صعباً بالنسبة له.."

هكذا نشرت صحيفة "واشنطن بوست" في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩٩٨ .

وأستطيع أن أقول أن كلمة "صعب" التي وردت علي لساني في الخبر هي كلمة خاطئة ، وأن كلمة "مستحيل" هي الأقرب للحقيقة. ولكن حتى كلمة "مستحيل" لا يمكن أن تعبر بدقة عن صرامة الموقف الذي اتخذته حيال هذه القضية.

وسوف أروي هنا ما حدث في منتصف شهر أكتوبر عام ١٩٩٨ في مركز مؤتمرات واي بلانيتشن الذي يقع علي واي ريفر عند الساحل الشرقي من "ميريلاند". سأروي القصة الحقيقية لما حدث في تلك الفترة ، بالنسبة لقضية جوناثان بولارد ، والتي كانت قد تفجرت قبل ثلاث سنوات مع وقوع جريمة قتل وحشية. ففي عام ١٩٩٥ ، قام إحد المعارضين الإسرائيليين لعملية السلام باغتيال إسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل ، قبل مرور أقل من عامين علي منحه جائزة نوبل للسلام مناصفة مع وزير خارجيته شيمون بيريز وياسر عرفات. وقد كان لعملية الاغتيال هذه تداعياتها ليس فقط علي الإسرائيليين ولكن علي الفلسطينيين أيضاً. و رغم أن الإسرائيليين كانوا قد اعتادوا رؤية الفلسطينيين علي أسطح المنازل يهللون فرحاً كلما حلت كارثة بإسرائيل ، إلا أن مقتل رابين قد أشعل تعاطفهم مع جيرانهم الإسرائيليين علي غير العادة ، ومن هنا بدأت نظرة الإسرائيليين لجيرانهم الفلسطينيين تتغير بالكامل. ولم يمض من الوقت الكثير ، حتي تسلم بيريز مهام رابين. وخلال أشهر قليلة ، بدأ للجميع أن عملية السلام ممكنة.

ثم جاءت سلسلة التفجيرات الانتحارية التي وقعت في أواخر شهر فبراير عام ١٩٩٦ - ٤ تفجيرات في ٩ أيام قامت بها حركة حماس خلفت أكثر من ٦٠ قتيلًا - وقد كان رد الفعل الفوري علي هذه التفجيرات من جانب ياسر عرفات ، الذي كان قد تم انتخابه رئيساً للسلطة الوطنية الفلسطينية في يناير من نفس العام مفاجئاً بالنسبة للجميع. فقد سارع عرفات باعتقال عشرات الميليشيات المسلحة بما فيهم المشتبه في قيامه بتجنيد المفجرين الانتحاريين ، وشتت قواته غارات علي ١٢ منظمة ومؤسسة تقدم أموالاً وأشكال أخرى من الدعم لحماس.

وتوصلنا في تحليلاتنا لموقف عرفات في " سي. آي. إيه " بأن الرجل قد فوجئ بحجم العنف ، وأنه ادرك أن حماس أقوى مما تخيل ولدرجة كافية لتهديد سلطته.

ومن هذه اللحظة بدأ الجميع يقوم بعملية مراجعة شاملة لعملية السلام ومستقبلها في ضوء المتغيرات الجديدة.

وفي شهر مارس عام ١٩٩٦ ، وفي محاولة يائسة لإحياء المفاوضات ، طار وفد أمريكي إلي الشرق الأوسط للالتقاء بقيادة المنطقة. دينيس روس مبعوث السلام الأمريكي في المنطقة وجون دوتش رئيسي في ذلك الوقت. وفي تلك الفترة كان الرئيس كلينتون يللم أوراق فترة رئاسته الأولى ويستعد لحملة التجديد لفترة رئاسية أخرى. ونتيجة لجولة الوفد جاء مؤتمر قمة سلام شرم الشيخ في مصر. بحضور الرئيس كلينتون نفسه.

ولأن العملية السياسية لا يمكن أن تنجح دون استقرار النواحي الأمنية فقد أسندت لي سي آي إيه مهمة ترتيب لقاءات واتفاقات أمنية بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني ، ووافق الرئيس كلينتون.. وقلت للرئيس - وقتذاك - أننا لا يجب أن نكون مجرد مظلة لهذه المفاوضات الأمنية ، وإنما وسيط نزيه يمكن أن يعود إليه الطرفان ، ويمكن أن يثق فيه الطرفان.

وقبل اجتماع قمة شرم الشيخ كنت قد طرت لإسرائيل وتزامن بعد وقت قليل من تولي مهامي كنائب لمدير الوكالة واجتمعت مع الإسرائيليين والفلسطينيين الذين كانوا يتوجسون خيفة - كما أبلغوني - من أن تكون لعلاقتنا الاستراتيجية مع إسرائيل تأثيراً علي دورنا كوسطاء.

و بعد مرور أكثر من عامين علي قمة شرم الشيخ بدأت الجولة الثانية من المفاوضات في اكتوبر عام ١٩٩٨ في واي ريفر بالولايات المتحدة ، وكان قد مر علي تعييني مديراً ل سي آي إيه ١٥ شهراً.

وكان دينيس روس قد أعد مائدة المفاوضات ، بعد أن نقل رسالة للجانب الفلسطيني مثلاً في محمد

دحلان رئيس الأمن الفلسطيني في غزة ، ثم بعد ذلك عرفات مفادها أنه يتعين علي الفلسطينيين أن يكونوا مستعدين لتقديم تنازلات أمنية للإسرائيليين في هذه المفاوضات واتخاذ إجراءات غير مسبوقة لطمأنتهم.

وكما هو متوقع رفض دحلان هذا المطلب، فقال له روس "سنقوم بتغيير منطوق الطلب وليس جوهره". ولأن دحلان لم يكن في وضع اختيار ، فقد وافق علي ذلك. ولكن روس أبدى مزيداً من التشدد مع الفلسطينيين ، لأنه كان يريد إغراء بنيامين نتنياهو الذي حل محل بيريز كرئيس لوزراء إسرائيل منذ ربيع عام ١٩٩٦ بالانخراط في المفاوضات ، الأمر الذي لم يكن ليتحقق ما لم يقدم الفلسطينيون تنازلات. و في النهاية رفع الستار عن مفاوضات واي ريفر في الخامس عشر من اكتوبر عام ١٩٩٨ بحضور الوفدين الفلسطيني برئاسة عرفات والإسرائيلي برئاسة نتنياهو والأمريكي يتقدمه الرئيس كلينتون. وفي المؤتمر الصحفي يوم افتتاح المفاوضات قطع الملك حسين عاهل الأردن الراحل رحلة علاجه في أمريكا من مرض السرطان ، وجاء للمؤتمر ومعه الملكة نور حيث ألقى كلمة حث فيها الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني علي تقديم تنازلات لتحقيق هدف أسمى وهو السلام.

كلينتون وعد نتنياهو بالإفراج عن الجاسوس الإسرائيلي بولارد

ولولا تهديدي الصريح في وجهه بالاستقالة لكان قد فعلها !!

و لكن نتنياهو وعصابته كانوا صعب المراس ، وقد راحوا يرفضون الخطط والمقترحات ، مؤكدين أنها لا تلي متطلبات إسرائيل الأمنية ، وحزموا حقائبهم ، ووضعوها خارج مقر إقامتهم ، في تهديد بالرحيل لولا تدخل كلينتون وروس ومادلين أولبرايت وزيرة الخارجية في ذلك الوقت وعضو الوفد الأمريكي ، وهنا يبرز دوري كحلقة وصل بين الطرفين المتنازعين ، ومحاولاتي المضنية لإقناع أقطاب الوفد الكبار وفي مقدمتهم اسحاق موردهاي وزير الدفاع حتي وافق الإسرائيليون في الحادي والعشرين من أكتوبر علي " خطة الثلاثين يوماً " لإقرار الأمن من خلال قنوات اتصال ولقاءات مفتوحة بين مسؤولي الأمن والاستخبارات في كلا الجانبين. كما تعهدت أنا نيابة عن إدارة كلينتون بمساعدة سي. آي. آيه الفلسطينيين علي بناء أجهزة أمنهم.

ولكن ومع التوصل إلي كل هذا بقيت مسألة أخيرة يتعين حلها : جوناثان بولارد. و جوناثان بولارد هو محلل استخبارات بسلاح البحرية الأمريكية ، كان قد تم إلحاقه للعمل بمكتب

وزير الدفاع الأمريكي ، وأدين في عام ١٩٨٦م بتهمة تسريب مواد سرية إلى إسرائيل ، وكان تلك الأثناء يمضي عقوبة السجن مدي الحياة في سجن فيدرالي بمدينة " بوتنر " بولاية " نورث كارولينا ". وكان لدي مسئولي الاستخبارات الأمريكية قناعة بأن بولارد لم يتجسس لحساب إسرائيل حياً فيها ، وإنما كان مستعداً لبيع الأسرار لدول أخرى. ومع ذلك فقد كان الإسرائيليون ينظرون إليه رغم كونه أمريكي كجندي يخدم إسرائيل.

والحقيقة أنني صدمت لمجرد سماعي اسم بولارد يطرح في منتصف هذه المفاوضات ، لا سيما وأنا كنا بصدد مفاوضات سلام ، ولسنا مجتمعين لإصدار عفو عن أناس باعوا أوطانهم ! وقد علمت من مارتن انديك فيما بعد أن اسم بولارد كان قد طرح منذ اليوم الأول في مفاوضات " واي ريفر " ، وبالتحديد في أول لقاء جمع كلينتون بنتياهو لم تتح لي فرصة لحضوره ، وأنه أي انديك سأل ساندي بيرجر ، الذي حضر اللقاء ، عما إذا كان بيبي (نتياهو) قد فاتح كلينتون في موضوع بولارد فرد عليه بالإيجاب ، وقال إن كلينتون وافق علي إطلاق سراحه ولكن في نهاية المفاوضات.

وفي ليلة الثلاثاء سأل كلينتون دينيس روس عن مدى أهمية بولارد بالنسبة لنتياهو ، فأشار روس عليه بإمكانية إطلاق سراحه ، ولكن بعد الانتهاء من مفاوضات الوضع النهائي التي يمكن أن تستغرق شهوراً أو سنوات. وأبلغ روس كلينتون بأنه يستطيع إنجاح مفاوضات واي ريفر الجارية دون اتمام صفقة بولارد!

روس حاول إقناع كلينتون في "دورة المياه" بأنني علي حق

وأن نتياهو سيوقع اتفاقية "واي ريفر" دون إطلاق بولارد !!

وفي يوم الخميس دعاني ساندي بيرجر لاجتماع يضم روس ومادلين أولبرايت وآخرين ، وفي الجلسة وجدته يقول لي : يجب أن تعرف أن نتياهو تمكن من إدراج قضية الجاسوس الإسرائيلي جوناثان بولارد ضمن المفاوضات. وهنا انتابني مشاعر الصدمة ، وانسجبت غاضباً من قاعة الاجتماع وقلت له : لا علاقة لموضوع الجاسوس الإسرائيلي بمفاوضات السلام ، وعندما لحق بي قلت له : لا علاقة لبولارد بما نحن فيه ". وهنا قال لي " اسمع الرئيس لم يوافق على أي شيء حتى الآن فيما يتعلق بقضية بولارد ، ولكنني أردت إطلاعك علي ما سيجري " والحقيقة أن سبب رفضي إدراج قضية بولارد في المفاوضات ، أو حتى إثارة مسألة إطلاق سراحه هو تخوفي من أن شيئاً كهذا - إن حدث - سيعطي انطبعا لدى

موظفني في " سي. سي. آي. إيه " بأن مواطناً أميركياً قد كوفئ علي تجسسه على بلاده. كما كانت صدمتي كبيرة لوجود مسؤولين كبارا في الإدارة الأميركية يؤيدون إطلاق سراح هذا الجاسوس الإسرائيلي. ومن هنا حرصت علي أن يكون موقفني من هذه المسألة واضحاً لا لبس فيه وللجميع . و نفس موقفني تبنته أولبرايت. أما بيرجر فقد طلبت منه ترتيب لقاء يجمعني علي الفور بالرئيس وحده . وخلال ساعة كنت أمام كليتون نجلس وحدنا في مواجهة بعضنا البعض للمرة الأولى. وقلت له بعد تقديم مبرراتي وتأكيدي علي أننا بذلنا جهوداً خارقة ، وأن المفاوضات ستتحج بغض النظر عن قضية الجاسوس بولارد.. قلت للرئيس : إذا تم إطلاق سراح بولارد فسوف أقدم استقالتي في صباح اليوم التالي.. هذه المسألة لا علاقة لها بالمفاوضات الجارية.. أنا أشكر لمنحي الفرصة لكي أكون مدير الـ سي. سي. آي. إيه ، ولكن لو تم إطلاقه فلن أكون في الصباح التالي مدير مخابراتك".

في اليوم الثاني وبينما نجلس مع أعضاء الوفدين الفلسطيني والإسرائيلي وكان بينهما تنياهو ودحلان ، دخل علينا الرئيس كليتون ومعه ياسر عرفات ، وقدم عرفات لبيبي ليتصافحا بالأيدي ، ثم فاجأنا بقوله " كل شيء علي ما يرام ، ولكن لا تزال هناك قضية عالقة فتنياهو لا يزال يريد بولارد!"

الفلسطينيون اعترضوا بشدة علي تقديم " تنازلات " للإسرائيليين

فقررنا تغيير الصياغة اللفظية والإبقاء علي الجوهر والمضمون!!

وقد أبلغني روس أنه وكليتون ذهبا إلي دورة المياه ليتحدثا علي انفراد ، حيث قال له روس : أيها الرئيس إذا كنت وعدت تنياهو بإطلاق سراح بولارد يمكنك ألا تفعل ، وأؤكد لك أن الاتفاق الذي توصلنا إليه مهم لبيبي لدرجة لا يستطيع معها أن يرفضه.

وحسبما أبلغني أندريك فإن كليتون اجتمع مع تنياهو مرة أخرى ، واعتذر له قائلاً : لا أستطيع الإفراج عن بولارد لأن مدير مخابراتي سيستقيل إن فعلت " ! وقال لي انديك أن تنياهو رد علي الرئيس بقوله : " إذن اعتبر اتفاق السلام لاغياً!"

وكانت الصحف الإسرائيلية قد أعلنت أن تنياهو سيأتي ببولارد معه إلي إسرائيل ، واعتبرت إطلاقه مسألة منتهية ، مما كان يشكل ضغوطاً علي تنياهو والوفد الإسرائيلي. ومع ذلك ، وكما توقعنا أنا وروس ، فقد وقع تنياهو في النهاية اتفاق الخليل للسلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين عام ١٩٩٨ دون الحصول عل بولارد!!

المفاوضات الصعبة بين الفلسطينيين وإسرائيل ..

بين مراوغة الإسرائيليين وابتزازهم وبين تسويق ياسر عرفات

فيما بين اسدال الستار علي قمة واي ريفر في شهر اكتوبر عام ١٩٩٨ ، ونهاية شهر سبتمبر ٢٠٠٠ ، لم يقع أي هجوم فلسطيني انتحاري ضد اسرائيل (فيما وراء الخط الأخضر). وفي ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠ ، قام أرييل شارون زعيم كتلة الليكود المعارضة - وقتذاك - بزيارة المسجد الأقصى في القدس القديمة.

وأعلن شارون أن الهدف من الزيارة هو بحث شكاوي علماء الآثار الإسرائيليين من قيام المسلمين بتخريب المنطقة. ولكنه وصل المنطقة مدججاً بألف جندي ورجل شرطة في اليوم التالي لمقتل جندي اسرائيلي في هجوم انتحاري وبعد الزيارة بيوم واحد اندلعت الانتفاضة الثانية ، وبدأت عملية السلام تترنح .

وفي محاولة لانقاذ عملية السلام التي كانت توشك علي الانهيار ، شاركت في ٣ محاولات أخري لدفع عملية السلام في الشرق الأوسط إبان إدارة الرئيس بيل كلينتون. قمة كامب ديفيد في ١١ يوليو عام ٢٠٠٠ ، والتي استمرت أسبوعين كاملين دون توقف ، ثم اجتماع في باريس في ٤ أكتوبر ٢٠٠٠ لمتابعة تنفيذ ما تم الاتفاق عليه في هذه القمة ، قبل أسبوع واحد من توقف عملية السلام من جديد بسبب اندلاع الانتفاضة الثانية ، وأخيراً قمة شرم الشيخ ١٦ - ١٧ أكتوبر ٢٠٠٠ برئاسة مشتركة من بيل كلينتون والرئيس المصري حسني مبارك.

وكانت الترتيبات الأمنية التي توصلنا إليها بصعوبة في واي ريفر هي أساس هذه الفعاليات الثلاث ، والتي ساعدت الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني علي إدراك معنى الأمن المتبادل. وفي قمة كامب ديفيد لم تكن القضايا الأمنية ذات الأهمية القصوي في بداية المفاوضات ، حيث دارت المحادثات حول دور اللاعبين الرئيسيين في الجانب الإسرائيلي علي الأقل. فقد رحل نتنياهو عن السلطة ، وحل محله إيهود باراك. وعلي الرغم من أن عرفات كان لا يزال رئيساً للجانب الفلسطيني ، وكان من الصعب بل من المستحيل إزاحته. والحقيقة أن أحداً من كبار أعضاء الوفود المشاركة في القمة لم يكن ليملك مثل ما لدى عرفات من صلاحيات وسلطات.

و قد كانت علاقة مادلين أولبرايت بعرفات تتراوح ما بين الحب والكره. وفي تلك الفترة كانت تميل إلي الكره أكثر منها إلي الحب. وقد حاول الرئيس كلينتون أن يساعد عرفات ، ولكن الأخير لم يتعاون معه

حتى رغم جهود كلينتون المضنية في هذا الصدد. ومما صدمنا هو رفض عرفات لخطة باراك الذي كان مستعداً للتوصل إلي صيغة ما لاتفاق سلام نهائي. وكان تقييماً في سي. آي. إيه أن باراك جاء إلي كامب ديفيد وفي نيته التوصل إلي اتفاق نهائي ، أما عرفات فلم تكن لديه هذه النية. فقد كان عرفات يعتقد أنه كان قد حصل من باراك علي التزام راسخ بإعادة ثلاث قري قريه من القدس للفلسطينيين ، ولكن في منتصف شهر مايو أدرك عرفات أن باراك لن يفي بتعهدده ولن يعيد القرى. ومن هنا أدرك عرفات أن باراك ليس الرجل الذي يفي بوعوده ، ويمكن الوثوق فيه. أما لماذا جاء عرفات إلي كامب ديفيد فالسبب هو عدم رغبته في توجيه إهانة إلي الرئيس كلينتون إذا ما رفض الحضور.

وجاء دوري عندما بدأت المفاوضات تنهار ، بعد انسحاب عرفات ، وتهديده بالرحيل ، وطلبت مني مادلين أولبرايت أن أذهب إليه لإقناعه بالعودة لمائدة التفاوض. فذهبت إليه وقلت له إن الإسرائيليين لن يمدوا أيديهم بغصن الزيتون كما يفعلون الآن. ورحت أذكره بالجهود التي بذلها الرئيس كلينتون لدفع مفاوضات السلام للأمام. وقلت له : الآن عليك العودة للمفاوضات ، وإذا رفضت فعلى الجميع العودة من حيث أتى وينتهي كل شيء. ولشدة دهشتي ، فقد وافق عرفات في الحال علي العودة قائلاً إنه علي استعداد لبحث أي شيء يضعه الرئيس أمامه. وقد استمرت هذه المحادثة ١٥ دقيقة فقط ، قبل أن أعود إلي أولبرايت لإبلغها بعودة عرفات وسط دهشتها لسماح ذلك. ورغم ذلك فقد فشل كلينتون في إقناع عرفات بخطة باراك ، وانهارت المفاوضات في النهاية وذهبت الوفود من حيث أتت حاوية الوفاض . وفي أكتوبر ٢٠٠٠ ، اجتمعت الأطراف من جديد في باريس. وتم الاتفاق علي ١٠ خطوات يتعين اتخاذها لوقف العنف الذي تفجر مع الانتفاضة ، وبينما كان دنيس روس يعكف علي كتابة الخطوات العشر ، فإذا بالرئيس عرفات يغادر الاجتماع لكي يزور الرئيس الفرنسي جاك شيراك ، ومنذ تلك اللحظة وقد أخذت جميع الأمور تسوء من جديد !.

فقد استغل عرفات لقاءه مع شيراك لإثارة أكثر الخطوات العشر التي يمكن أن تثير حفيظة الرئيس الفرنسي وهي تشكيل محكمة أمريكية لمرتكبي جرائم العنف ، وطلب عرفات منه الضغط لاستبدالها بمحكمة دولية ، وعدنا لنقطة البداية من جديد وانهار الاجتماع. وبعده التقينا في شرم الشيخ بمصر ورأس القمة الرئيس كلينتون والرئيس مبارك. وتحتل مصر مكانة فريدة في الشرق الأوسط - والسعوديون أيضا - لأسباب مقنعة ، ، ولكن القاهرة وليست الرياض أو المدينة أو مكة هي العاصمة

الثقافية للإسلام. ولكن مصر كما السعودية تقف في مفترق الطرق بالنسبة للإرهاب الدولي. فالإخوان المسلمون ولدوا في مصر ، وفي مصر اغتيل أنور السادات وقد خاضت مصر بالتحالف مع دول عربية أخرى ٤ حروب ضد إسرائيل وهي ما تزال الدولة التي ينظر إليها الفلسطينيون كحاميتهم . وهناك اللواء عمر سليمان مدير المخابرات المصرية لسنوات طويلة. وهو رجل طويل القامة يتمتع بالوقار والهيبة.. رجل قوي جداً ..مباشر في كلامه.. كما أنه شديد البأس ودؤوب . و لظالما كان سليمان دائماً في المكان والزمان يقتحم الأزمات بجرأة وصلابة لإقرار السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين عندما كان الجميع يفشل! ورغم أنني لا أعرف الرئيس مبارك حيث لم ألتق به كثيراً مثل سليمان ، إلا أنه كان دائماً من أهم شركائنا الذين نعتمد عليهم في مكافحة الإرهاب ، ومحاولاتنا إقرار السلام في الشرق الأوسط. والحقيقة أن علاقتي به لم تكن متكافئة فهو شخصية تاريخية مهمة . ويتولي رئاسة مصر منذ عام ١٩٨١ في أعقاب مقتل الرئيس السادات. وقد نجح نفسه بإعجوبة من محاولة اغتياله في عام ١٩٩٥ أثناء وجوده في إثيوبيا. وخلال السنوات التالية نجح الرئيس من الموت بإعجوبة بعد محاولة طعنه بسكين. ويتمتع الرئيس مبارك بقدر هائل من الحكمة. ورغم أنه رجل تنم ملامحه عن الجدية ، إلا أنه يتمتع أيضاً بخفة الظل.

وقد واصلت ابلاغ عرفات بما أريد. ورغم أنني محترف تم تدريبه جيداً على مثل هذه المواقف ، إلا أن الأمر لم يكن سهلاً خاصة عندما ضحك الرئيس مبارك بصوت هادئ علي مزحته الصغيرة هذه. وقد كانت الثقة في عرفات دائماً مشكلة المشاكل ، وخاصة أثناء السنة الأخيرة من فترة حكم الرئيس كلينتون ، حيث شعر كلينتون بالإحباط إزاء عدم رغبة عرفات في قبول ما يُطرح عليه من حلول ، وبدا وكأنه يريد استمرار التفاوض فقط حتى يظل الرجل الأول بالنسبة للفلسطينيين ويحتفظ بموقعه هذا وسلطاته ، ويبقى لاعباً عالمياً.

وعندما جاءت إدارة الرئيس بوش لم تول عرفات مثل هذا الاهتمام أو الاعتبار ، رغم أن إدارة كلينتون كانت قد منحتة دوراً محورياً في عملية السلام. وقد ساندت موقف إدارة بوش في عدم الاستمرار في منح عرفات مثل هذا الدور ، أو المضي قدماً في ترسيخ صورته كلاعب عالمي ، أو منحه أي مكافأة أخرى على سلوكه الذي لا يؤدي بنا إلي تحقيق أي شيء! والحقيقة أنني أعشق الإسرائيليين.. ولعهم بالحياة.. وما فعلوه لنصرة أنفسهم وإقامة دولتهم ، وأيضا ارتبطت بالفلسطينيين وكان عرفات جزءاً من هذا الارتباط. ولم أستطع أن أمنع نفسي عن حبه. وكلمة " حب " أو " صديق " تبدو غريبة وشاذة

في عمل المخابرات ، ولكن تعبير " زواج مصلحة " هو الأدق .

والحقيقة أن شخصية عرفات كانت دائماً موضع التقييم والتحليل . وكنت أتناقش ذات ليلة مع شلومو ياناي ، الذي كان يشغل منصب رئيس التخطيط العسكري في الجيش الإسرائيلي حول ما إذا كان عرفات " موسى أم بن جوريون " .. ومع الوقت كانت المحصلة النهائية لعملية التقييم من وجهة نظري أنه " لا موسي ولا بن جوريون " . والحقيقة أن الإسرائيليين كانوا يعرفون عرفات أفضل من أي شخص آخر في العالم .

وحتى الفلسطينيين أنفسهم كانوا يعرفون أوجه القصور في شخصية عرفات ، وفي مرحلة ما كانت إدارة بوش ترغب من أن يتمكن مساعدوه من إزاحته والجيء بشخصية أخرى يمكن - من وجهة نظرنا - التعامل معها ، وقد طالبناهم بذلك بالفعل ، ولكنهم لم يستمعوا إلينا جيداً ، رغم يقينهم بأن هناك حاجة ماسة إلى تغييره ، وتأكدتهم من أن نظامه لا يتيح للفلسطينيين حق مساءلة النظام أو محاسبته ، أو فرض رقابة علي تصرفاته .

كان الراحل عرفات أكثر الشخصيات التي عرفت في حياتي تعقيداً .. في بعض الأحيان أكاد أجن منه ، وفي أحيان أخرى كنت أريد معانقته ، ولم أكن أعرف أبداً أي جانب من شخصية عرفات سأقابله في أي لقاء يجمعني به .

استطيع أن أقول أن إدارة بوش أرادت في البداية أن أبقى بعيداً عن عملية السلام ، وأن أترك الأمور في أيدي الدبلوماسيين ، رأيت هذا أمراً لا بأس به . ولكن في الأول من يونيو ٢٠٠١ ، وقع هجوم انتحاري على ديسكو في تل أبيب يعرف باسم " دولفناريوم " مما أسفر عن مصرع واحد وعشرين إسرائيلياً ، معظمهم من المهاجرين الروس ، الأمر الذي أحدث صدمة لدى الإسرائيليين وأصبحت الأمور في طرفها إلى التفاقم في المنطقة . و بعد أيام قليلة تم إرسالني للوقوف علي ما يمكن عمله لإحياء جهود السلام ، ومحاولة التوصل إلى اتفاق أممي قابل للتنفيذ ، يدفع عملية السلام للأمام . وفي مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي - وقتذاك - أرييل شارون استمرت الجهود بين الجانبين الأميركي والإسرائيلي لوضع اللمسات النهائية على اتفاق شامل ، غير أن الإسرائيليين بدأوا في المطالبة باتفاق جانبي ، وهو نوع من التحايل أو الغطاء الذي يمكنهم أن يستتروا وراءه إذا ساءت الأمور ، أو بالأحرى يمكنهم تسريبه إلى الصحافة لتخريب العملية ونسفها بكاملها . و كان ردي على الإسرائيليين بقولي : لا للاتفاقات الجانبية ، فردوا علي بقولهم : لا للصفقة بأكملها .

وبعد ثمانية أيام من عملنا الشاق ، توصلنا لاتفاق أطلق عليه اسم "خطة عمل" يتألف من قائمة تفصيلية بخطوات محددة من شأنها أن تفضي إلى استئناف التعاون الأمني وفرض التزام صارم بوقف إطلاق النار وإيقاف العمليات " الانتحارية " وإعادة نشر الجيش الإسرائيلي والوقف الفوري للاشتباكات ، وقيام الفلسطينيين باعتقال " المتشددين " وتخفيف القيود التي يفرضها الإسرائيليون على السفر وسحب القوات الإسرائيلية. وبعد فترة من التهذئة ، تضمنت الخطة تنفيذ اقتراحات لإقرار السلام سبق طرحها في شهر ابريل ٢٠٠١ من قبل لجنة ميتشل. وفي مساء ١١ يونيو انتهى العمل وعقد اجتماع ثلاثي من أجل التوقيع النهائي علي خطة العمل. بعد ذلك بدأت رحلة الانتظار الطويلة لرد عرفات ، وذهبت إلى رام الله للقاءه كي أحصل على موافقته على خطة العمل .

لم يكن عرفات في مدخل مقره في رام الله لدى وصولي ، وهو ما اعتبرته مؤشراً سيئاً. وقال عرفات لدى استقباله لي ، وقد بدا عليه التجهم ، إنه يريد اتفاقاً جانبياً مع الأميركيين قبل موافقته على خطة العمل. وعند رفضي طلبه ، أصر على أن يأخذ الأمر صيغة رسالة يحررها عرفات وتوجه إلى تينيت. هذه الرسالة ذات الفقرات الثلاث ، استمر التفاوض عليها طويلاً إلى أن دقت الساعة معلنة الثانية بعد منتصف الليل ، حيث كتبت الرسالة في صيغتها النهائية ، وسُلمت إلي ، لكنني اكتشفت أن هجاء اسمي كان خاطئاً ، فأصر عرفات على كتابة الرسالة مجدداً ، ومضى يعنف العاملين في مكتبه ، ويطالبهم بأن توجه الرسالة في صيغتها الجديدة إلى شخصي حاملة التحية موجهة إلى " عزيزي المحبوب المدير تينيت " وفي اليوم التالي عقد اجتماع ثلاثي غير بعيد عن مقر ديسكو " دولفيناديوم " ، واتصل الرئيس جورج دبليو بوش، الذي لم يحط بكل جوانب الموقف بي في اليوم التالي من طائرة الرئاسة ليهنئني على توفيقني في مهمتي. ولكن بعد أسبوع تقريباً انهارت هذه الصفقة برمتها، وتحولت إلى حطام على حيد الطريق الوعر إلى السلام .

وقد كنت - فيما بعد - من بين أواخر المسؤولين الأميركيين الذين التقوا عرفات وهو لا يزال على قيد الحياة في مقره برام الله في عام ٢٠٠٢. وبدا يومها هزياً.. شاحباً.. محاصراً ومعزولاً عن شعبه ، وسجيناً في مقره الذي حاصرته الدبابات الإسرائيلية ، لكنه كان لا يزال زعيماً للفلسطينيين ، وكنت قد توجهت إليه لأهيب به أن يصلح أجهزته الأمنية ، وينظمها ويجعل لها هيكل قيادي واضح ، ويعين لها وزيراً لها يتولى مسؤوليتها. وفي هذه المرة أيضاً لم أقابله عند مدخل المقر، فقد كانت العيون الإسرائيلية بانتظار ظهوره ، ولو للحظة ، ومع ذلك فقد تأكدت من أن الوقت قد انقضى ، وأن نافذة الأمل قد

أوصدت. وأن عرفات كان يعرف ذلك ، كان يعرف أنه لن يقود شعبه إلى الأرض الموعودة ، بل إنه لم يستطع اجتياز المدخل الأمامي لمقره سيراً على الأقدام ، فهو لم يكن موسى ولم يكن بن غوريون !

توقعنا هجمات سبتمبر ورفعنا كل الرايات الحمراء

ولكن لم يستمع لنا أحد

سيطرت هجمات الحادي عشر من سبتمبر علي الوعي الوطني لنا كأمرئيين ، بطريقة يصعب معها أن نتذكر أنه كان هناك وقت ليس ببعيد ، بدا فيه الإرهاب بصفة عامة ، والحرب علي الإرهاب علي وجه الخصوص ، وكأتهما بعيدان كل البعد عن حياتنا. ولكن بالنسبة لمعظم الأمريكيين في الفترة التي سبقت هجمات ١١ سبتمبر ، فإن تعرضنا لهجمات إرهابية كان أمراً محتملاً. وكانت مانشيتات وعناوين الصحف تعبر عن ذلك. علي سبيل المثال ، فعندما تم تفجير ثكنات مشاة البحرية الأمريكية في بيروت أوائل الثمانينيات ، بدأت قضية الإرهاب تظهر علي الساحة.

وبالنسبة لي ، فإن الإرهاب كان موضوعاً محورياً يهيمن علي تفكيري ، ليس فقط أثناء سنواتي السبع كمدير للمخابرات المركزية ، وإنما طيلة مشواري الوظيفي بأكمله. وأنا لا أدعي هنا أن لدي موهبة قراءة المستقبل ، ولكن ليس بمقدورك - لو كنت في مكاني - أن تجلس لتقرأ ما يصل إلي مكتبك يومياً ، وتمنع نفسك من من أن تموت هلعاً للكلم الهائل ، الذي تطلقه هذه التقارير من تحذيرات.

بن لادن حاول في السودان إنتاج غازات سامة

لإطلاقها علي القوات الأمريكية في السعودية !!

فقد استمر الأصوليون الإسلاميون الكارهون للغرب في الأخذ بأسباب القوة ، وبناء تنظيماتهم لأسباب لا تعد ولا تحصى. ورأينا الخطر يقترب. ورأينا هؤلاء الذين كانوا يحاولون كبح جماح هذا العداء المجنون ، ووضع النقاط فوق الحروف ، وتجميع الخيوط لتحديد أهدافه. وكنا كل يوم نكافح وبكل قوتنا ، علنا نقف علي الطرق الكفيلة بتزاع فتيله ، أو إبطال مفعوله ، أو منع الانفجار القادم ، وجعله يرتد إلي صدر أصحابه.

ورحلة الكفاح هذه لم تبدأ من خلالي ، بل تعود عملية البحث عن أساليب وطرق جديدة ، لإجبار إدارتنا البيروقراطية علي أن تولي اهتمامها الواجب لتحذيرات المخابرات المتصاعدة ، إلي ما قبل تولي

إدارة الوكالة. ففي عام ١٩٩٦ مثلاً استقطع مدير سي آي إيه وقتذاك جون دوتش جزءاً من ميزانية الوكالة المحدودة لإقامة محطات استخباراتية تجريبية ولكن من نوع خاص. وفكرتها تدور حول خلق وحدات داخل الدولة تعمل وكأنها وحدات عمليات خارجية . وتقوم هذه المحطات بعملها من خلال مبان مستقلة عن مقر الوكالة ، وكل تضم عدداً صغيراً من الأفراد ، ويركز محللو وضباط عمليات كل محطة علي قضية واحدة بعينها كـ " اختبار حالة " من شأنه أن نتعرف من خلاله عما إذا كانت تحليلاتنا واستنتاجاتنا صحيحة لهذه القضية . و لكن في المحصلة النهائية ، محطة واحدة هي التي أقيمت . وكانت القضية التي وقع الاختيار عليها كتجربة ، والتي ستولاها المحطة هي " حلقات تمويل الإرهاب " . ومن هنا كان تركيز المحطة علي أسامة بن لادن . وكان اسم أسامة بن لادن الذي كانت سي آي إيه قد اكتشفت في أوائل التسعينيات صلته بعمليات تمويل بعض الحركات الإرهابية ، قد أصبح في تلك المرحلة اسماً دائم التردد في أنشطة الوكالة وتقاريرها وتحليلاتها الاستخباراتية. وفي عام ١٩٩٣ ، وقبل أن أنتقل للعمل في "سي. آي. إيه " بعامين ، كانت الوكالة قد أعلنت أسامة بن لادن كأحد كبار ممولي الحركات الإرهابية الإسلامية. وقد علمنا أنه يقوم بتمويل عمليات التدريب الأساسي للمليشيات الموجودة في اماكن بعيدة كالبوسنة ومصر وكشمير والأردن وتونس والجزائر واليمن. ولم يكن " يو. بي. أل " كما كنا ننادي بن لادن سوى مجرد مثال من عشرات الأمثلة لتصاعد مؤشر الإرهاب في العالم. وقد كانت هناك عشرات الجماعات الأخرى تنافسه لكي تحظى باهتمام العالم ، ومنها حركة حماس وجماعة " الجهاد " المصرية ، ولكن مع منتصف عقد التسعينيات أصبح بن لادن في المقدمة ، وهدفاً رئيسياً يظهر بوضوح علي شاشة رادار الـ " سي. آي. إيه " وقد أبلغنا المحققون الباكستانيون علي سبيل المثال في شهر عام ١٩٩٥ إلي أنهم توصلوا إلي أن رمزي يوسف العقل المدبر للهجوم بالمتفجرات علي مركز التجارة العالمي في عام ١٩٩٣ ، والذي كان تم اعتقاله لتوه في إسلام آباد ، قد أمضى فترة كبيرة خلال السنوات الأخيرة في بيت الضيافة الخاص بين لادن في بيشاور. وكان بن لادن قبل ذلك بوقت طويل قد أصبح القضية الأولى والأخيرة لـ " محطة الفضيلة " والتي أعطيناها اسماً كودياً آخر هو " محطة آليس " . وكان من المقرر أن تعمل المحطة لمدة عامين ، ثم يتم تقييم التجربة ، وبعد نجاحها الملحوظ في عملها ، حدث أن استمرت المحطة في عملها لعشر سنوات تالية .

فكرنا في قتل بن لادن ولكن تحديد مكانه كان المعضلة

وطالبت مراراً بتدمير القاعدة في أفغانستان كإجراء وقائي!!

وكان بن لادن في أفغانستان قد أقام - أثناء الحرب ضد المحتلين الروس في أواخر الثمانينيات - قد أقام اتصالات وعلاقات مع الكثيرين من المتطرفين الإسلاميين ، ، والذين سيشكل منهم فيما بعد تنظيمه " القاعدة".

وفي مقابلة صحفية معه في عام ١٩٨٨ ، قال أن قذيفة سوفيتية قد سقطت علي قدميه ، ولم تنفجر ، فأدرك أنها إشارة من الله بتكليفه بمحاربة أعداء الإسلام. ولم يمر وقت طويل ، حتي راح بن لادن يستخدم ثروته لتدريب وتسليح ميليشيا " العرب الأفغان " لحرب مقدسة أو " جهاد " يتجاوز حدود أفغانستان ، ويشمل العالم بأكمله. ويردد البعض من المولعين بـ " نظرية المؤامرة " علي شبكة الإنترنت شائعات تقول أن بن لادن كان يعمل بطريقة أو أخرى لحساب سي.آي. إيه إبان حرب الأفغان ضد السوفيت ، أو كانت هناك قنوات اتصال رسمية بينه وبين المسؤولين الأمريكيين في ذلك الوقت. ولكن دعوي أوكد بأنه لم تكن لـ " سي. آي. إيه " أية اتصالات مع بن لادن أثناء هذه المغامرة السوفيتية الفاشلة. وقد عاد بن لادن إلي السعودية عقب طرد السوفيت من أفغانستان ، ولكن المسؤولين السعوديين الذين كان لديهم من المتاعب مع المتطرفين الإسلاميين ما يكفيهم لم يرحبوا به رغم عراقه أسرته. وعندما تعاون الأمريكيون مع السعوديين في عملية درع الصحراء ثم عملية عاصفة الصحراء وخاصة عندما سمح للجنود الأمريكيين بالانتشار علي أراض سعودية ، اشتعل غضب بن لادن ، ضد الغرب ، مما أغضب الحكام السعوديين من غرابة موقفه ، قبل أن يفاجأوا به يعسكر من جديد في السودان. وفي الخرطوم ، وجد بن لادن ترحيباً أكثر حرارة بكثير ، وبدأ يحتل مساحة أكبر فأكبر من اهتمامنا. وحدث أن دعاه الزعيم السوداني حسن الترابي لكي يتولي تدريب المقاومين الشماليين للإنفصاليين المسيحيين في الجنوب ، وإقامة عدة شركات في السودان أثبتت الأيام - فيما بعد - أنها عملت كواجهات تتخفي وراءها شبكة بن لادن الإرهابية العالمية. وبالتزامن كان بن لادن يقدم دعماً مالياً للجماعات المسلحة في الشرق الأوسط وكذلك إقامة معسكرات تدريب خارجية لتوفير التدريب الأساسي للجهاديين من شتى أنحاء العالم الإسلامي. وفي البداية كان بن لادن بالنسبة لنا ممول رئيسي ، ولكن في عام ١٩٩٦ استطاعت محطة آليس تجميع كل ملامح الصورة لتقدم لنا بن لادن كـ " آلة الشر " ، وليس مجرد شخص سعودي أحرق تكتظ جيوبه بالمال. ولأن السفارة الأمريكية في الخرطوم كانت قد أغلقت عقب

تدهور الأوضاع الأمنية هناك في عام ١٩٩٦ ، وتلقي دبلوماسيون في السودان تهديدات ، فقد فقدنا نافذة مهمة وقيمة لنقل ما يدور في البيئة الإرهابية المتنامية في هذا البلد. وقد افتتح بن لادن في السودان عدة شركات وظف فيها المحاربين الذين خاضوا الحرب ضد السوفيت في أفغانستان. ومعظم هؤلاء هم الذين أصبحوا أعضاء الخلايا النشطة لتنظيم القاعدة فيما بعد. وقد نجحت مشروعات بن لادن التجارية هناك ، وبالفعل ضاعفت من ثروته الكبيرة أصلاً. ولكن الأهم أننا تأكدنا وبالأدلة القاطعة من أن بن لادن قد بدأ يخطط ويشرف علي تنفيذ العمليات بنفسه. وبالفعل أدر كنا جميعاً في هذا العام ١٩٩٦ أن بن لادن أصبح زعيم منظمة إرهابية عالمية لها تنظيم وقادة كبار أمثال أيمن الظواهري ، وأنه يريد ضرب الولايات المتحدة في عقر دارها. وعلمنا أن القاعدة كانت تحاول الحصول علي مواد يمكنها من خلالها تصنيع أسلحة كيميائية وبيولوجية واشعاعية أو نووية. كما علمنا أن بن لادن ذهب بعيداً في سعيه لتصنيع هذه الأسلحة لدرجة أنه قام بشراء خدمات فيزيائي مصري للعمل في مشروعات نووية وكيميائية في معسكرات القاعدة بالسودان ، وأن تجاربه العملية في هذا الصدد تركزت حول إنتاج غازات سامة يمكن إطلاقها علي القوات الأمريكية في السعودية. كما أبلغنا أحد المنشقين عن بن لادن من أنه كان قد أرسل بعض رجاله قبل ثلاث سنوات إلي الصومال للعمل كمستشارين للجنرال "محمد فرح عيديد" أحد أمراء الحرب هناك الذي كان يهاجم القوات الأمريكية ، التي كانت هناك لدعم "عملية استعادة الأمل" (١٩٩٢ - ١٩٩٣) في إطار جهود الإغاثة الإنسانية التي كانت تقوم بها واشنطن لاحتواء المجاعة والفوضى في الصومال. والحقيقة أن انسحاب الأمريكيين من الصومال قد ألهم حماس بن لادن ، وقد عبر عن ذلك فيما بعد عندما قال أن هذا الانسحاب "يوضح مدي ضعف الولايات المتحدة" .. وأنها : "نمر من ورق يمكن هزيمته علي نحو أسهل مما كان عليه الحال مع السوفيت في أفغانستان". وقد كان هذا الانسحاب هو سبب دهشة بن لادن بعد خمس سنوات لوصول أفراد "سي. آي. إيه" مع القوات الأمريكية الخاصة بسرعة مذهلة إلي أفغانستان عقب وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر وبمساعدة منشقين أفغان وتدميرها حصنه المنيع.

مندهبش لصدمة إدارة بوش من حجم وطبيعة هجمات سبتمبر

فقد حذرناهم ورفعنا لهم الرايات الحمراء مراراً وتكراراً!!

وعندما بدأت الولايات المتحدة الضغط علي السودان لطرد بن لادن الذي كان قد أصبح عبئاً علي

حكومتها ، كان السؤال هو أو المشكلة هي إلي أين سيذهب ؟.. خاصة وأن السعوديين كانوا قد جردوه في عام ١٩٩٤ من جنسيته السعودية ولا يرغبون في عودته للمملكة. وقد انتشرت شائعات كثيرة في الصحف - وقتذاك - تتحدث عن أن الحكومة السودانية أكدت استعدادها لتسليم بن لادن للولايات المتحدة ، ولكنني ليس لدي معلومات من شأنها تأكيد هذا العرض. ولكن ما حدث هو رحيل بن لادن من السودان متوجهاً إلي باكستان في التاسع عشر من مايو من نفس العام ١٩٩٦ ، ليتحالف بسرعة مع الملا محمد عمر زعيم حركة طالبان وقادته الين كانوا قد أحكموا قبضتهم علي البلاد. وكانت هذه هي المرة الأولى التي نجد أمامنا فيها منظمة إرهابية ترعي دولة ، علي عكس الشائع بالنسبة للمصطلح المعروف لدينا " دولة راعية للإرهاب!!" وبسرعة بدأت أجراس الإنذار ، وإشارات التحذير تنطلق من أفغانستان. ونشرت صحيفة " إندبندنت " البريطانية موضوعاً في شهر يوليو عام ١٩٩٦ نقلت فيه عن أسامة بن لادن قوله قتل الأمريكين في " الخبر " بالسعودية في هجوم بالمتفجرات قبل شهرين هو بداية الحرب بين المسلمين والولايات المتحدة. و في الشهر التالي لنشر تهديد بن لادن انضم زعيم القاعدة للراديكاليين الإسلاميين بإطلاقه فتوى تعلن الحرب وتبارك شن الهجمات ضد الأهداف العسكرية الغربية في شبه الجزيرة العربية.

أسامة بن لادن كان مرصوداً أمريكياً من البداية

وكل ما فعله كان متوقفاً منذ أوائل التسعينات!!

وأقول لبعض أفراد إدارة الرئيس بوش اذين أعربوا عن صدمتهم إزاء حجم وطبيعة هجمات سبتمبر: لقد حذرناكم مراراً وتكراراً ، وفي كل مناسبة ، وقبل سنوات من وقوعها ، ورفعنا لكم الرايات الحمراء ، تعبيراً عن الخطر المائل أمام أعيننا ، ممثلاً في تنظيم القاعدة ، وبذلنا كل ما بوسعنا لكي نلفت انتباهكم لهذا التنظيم وتهديداته!

ففي عام ١٩٩٥ ، نشرنا تقديرات المخابرات القومية وكانت بعنوان : " التهديد الإرهابي الخارجي داخل الولايات المتحدة " وحذرنا فيه من تنامي خطر الراديكاليين الإسلاميين وقدرتهم علي شن هجمات داخل أمريكا. وجاء في التقرير بالحرف الواحد الأهداف المحتملة للهجمات الإرهابية ستكون الرموز الوطنية كالبيت الأبيض والكونجرس والرموز الرأسمالية كـ " حي المال " - وول ستريت. وحدد هذا التقرير الطائرات المدنية كهدف مغر لهذه الهجمات. وهذه النقطة الأخيرة هي التي أكدنا عليها من

جديد بعد عامين في تقرير آخر عام ١٩٩٧. وأكدت هذا بنفسه في جلستي استماع أمام الكونجرس عام ١٩٩٧ و ١٩٩٨ قبل أن يصدر بن لادن فتوى أخرى " أن من واجب المسلمين قتل الأمريكيين وحلفائهم في شتى بقاع العالم سواء أكانوا مدنيين أم عسكريين " وفي الرابع من ديسمبر عام ١٩٩٨ ، قدمنا للرئيس كلينتون ملخصاً استخباراتياً عنوانه " بن لادن يستعد لاختطاف طائرات ركاب وشن هجمات ". وفيما بين ١ أبريل - ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م قدمنا لكبار المسؤولين عن شركات الطيران المدني الأمريكية ما يصل إلي ١٠٥ موجزا استخباراتياً يحمل نفس التحذيرات. ورغم أنني كنت في حاجة لمزيد من التمويل من جانب إدارة الرئيس كلينتون ، حتى تتمكن وكالتي من مواجهة تهديدات القاعدة المتزايدة وأيضاً زرع جواسيس داخل التنظيم الإرهابي إلا أن المحصلة كانت فعلاً مخيبة للآمال. وأتذكر أن عملية اغتيال بن لادن كانت قد طرحت من جانبنا إبان إدارة كلينتون ، ولكن كانت هناك معضلة حقيقية وهي تحديد مكانه بالضبط ، وكانت وجهة نظري هي الهجوم الكاسح علي مراكز تدريب القاعدة ومعاقبتها فتدمير التنظيم كإجراء وقائي يفوق في أهميته قتل زعيمه ، وقد استمت من أجلها ولكن أحداً لم يستمع إلي جيداً سواء في إدارة كلينتون ، أو إدارة بوش فيما بعد وقبل هجمات سبتمبر!

أنا بريء من هجمات سبتمبر

وكوندوليزا رايس كانت علي علم بها قبل وقوعها

بعد فيض من التحذيرات بتجمع نذر العاصفة ، وبالإضافة إلي ما سبق أن تناولته من تقارير مؤلمة حول استعدادات القاعدة لمهاجمتنا في أي مكان بالعالم ، بدأت الصورة تتضح أكثر من خلال سلسلة هجمات تعرضنا لها خلال السنوات الثلاث السابقة علي زلزال ١١ سبتمبر أخطرها تفجير القاعدة لسفارتينا في العاصمة الكينية نيروبي ، ودار السلام عاصمة تنزانيا في عام ١٩٩٨ ، وهجوم آخر شنته بالمتفجرات علي المدمرة الأمريكية " يو. إس. إس. كول " عند سواحل اليمن في ١٢ أكتوبر عام ٢٠٠٠. وهنا بح صوتي وصوت العاملين في وكالتي من كثرة نداءاتنا لإدارة الرئيس كلينتون لكي تستمع إلينا ، وتوافقنا علي الذهاب إلي معقل القاعدة في أفغانستان لاستئصال التهديدات من جذورها. وقلنا إنه لم يعد لدينا ترف الانتظار ، وأن هذا الانتظار ليس في صالحنا ، وأنا سنشهد حتماً - إذا تلكأنا - مزيداً من الهجمات. وقد أكدت لجنة التحقيق في هجمات سبتمبر - فيما بعد - أن " الولايات المتحدة تقاعست عن الرد علي الهجوم علي المدمرة كول " وقد كانت البلاد وقت تفجير كول في منتصف حملة

انتخابات الرئاسة الأمريكية ، والتي انتهت بأزمة دستورية ، حالت دون إعلان اسم المرشح الفائز سواء الجمهوري بوش ، أم منافسه الديمقراطي آل جور. ورغم تغيير الإدارة فقد بقي الحال كما هو عليه!! ففي الثاني عشر من ديسمبر عام ٢٠٠٠ م ، أعلنت المحكمة الدستورية جورج بوش الرئيس الجديد للولايات المتحدة بقرار بأغلبية ٥ أصوات مقابل أربعة ، وإذا ما كنت تصدق ما أقوله في كتابي هذا ، فإنني سأقول لك إنني كنت أعرف أن محصلة هذه الانتخابات ، وما سيتمخض عنها من وصول بوش الإبن للرئاسة قبل عامين من إجرائها ، عند إعادة الكونجرس تسمية " سي. آي. إيه " في نهاية حكم كلينتون ، لتصبح " مركز جورج بوش للإستخبارات " تكريماً للرئيس السابق جورج بوش الأب. و بعد تولي بوش بدأنا نواصل تقديم الموجز الاستخباراتي اليومي للرئيس ، ولكن بواسطة وفي البيت الأبيض ويدا بيد - بناء علي طلبه - وأبلغنا مساعدو بوش حتى منذ الفترة الانتقالية عقب قرار المحكمة وتصديق الكونجرس علي تعيينه رئيساً على أنه يريد تقديم الموجز الاستخباراتي يومياً وعلي مدى ستة أيام في الإسبوع. وبالنسبة لنائب بوش ديك تشيني الذي كان يطلع بحكم موقعه علي الموجز الذي نقدمه ، فقد كان لا يضاوي آل جور نائب كلينتون في معرفته بطبيعة عمل المخابرات. وخلال الفترة التي سبقت هجمات سبتمبر كنت أجلس مع كوفر بلاك رئيس مركز مكافحة الإرهاب بـ " سي. آي. إيه " وفريق عمله لمعرفة ما يمكن عمله في ضوء التنامي المتسارع لتهديدات القاعدة ومنها سعيها للحصول علي أسلحة دمار. واتفقنا علي ضرورة تدعيم التحالف الشمالي بزعامة أحمد شاه مسعود لمواجهة باكستان التي تضم عناصر حتى علي المستوى الرسمي تساعد طالبان والقاعدة في الوقت الذي نوجه فيه ضربات صاروخية قاسمة لتدمير معقل التنظيم الإرهابي. وفي أول إجتماع أسبوعي لي مع مستشارة الرئيس بوش للأمن القومي كوندوليزا رايس في ٢٩ يناير ٢٠٠١ ، عرضت تهديدات القاعدة وقدمت لها خطوات محددة لدرء الخطر ، وأهمها خطة متكاملة لضرب معقل القاعدة في أفغانستان بالصواريخ ، بالتزامن مع تحييد باكستان أولاً ثم دفع رئيسها برويز مشرف للتعاون ثانياً ، في الوقت الذي ندعم فيه التحالف الشمالي لإسقاط طالبان. و منذ تلك اللحظة ، وأنا أدق ناقوس الخطر في جميع اجتماعاتي الأسبوعية مع رايس ومراراً وتكراراً . مساعد رايس لمكافحة الإرهاب حذرنا بنفسه وكتابة من التقاعس عن مواجهة القاعدة ومخاوفه من عناصر التنظيم النشطة في أمريكا!! ولكنني لم أكن الوحيد الذي حذر رايس ، فهناك أيضاً مساعدوها ديك كلارك مسئول مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي الذي تتولي هي رئاسته ، والذي انزعج مثلي من عدم اهتمام إدارة بوش بقضية الإرهاب في بداية توليها

، وكانت لديه الرغبة في إعادة وضع هذه القضية الملحة في بؤرة اهتمام بوش وفريق عمله. وقام كلارك بإعداد مذكرة عاجلة أوصى فيها ببدء اتخاذ اجراءات فورية ضد تنظيم القاعدة. وحملت مذكرة كلارك عنواناً يقرأ " استراتيجية الحد من تهديد الشبكات الجهادية للقاعدة : الوضع الراهن وسبل المواجهة". وأوصى كلارك بعمل عسكري يتم فيه مهاجمة قيادة ومراكز السيطرة التابعة للقاعدة والبنية التحتية لنظام طالبان. وأبدى كلارك في مذكرته لرئيس مخاوفه من احتمالات وجود عناصر نشطة للقاعدة داخل الولايات المتحدة. وقد علمت أن كلارك أرسل في ٢٥ يناير ٢٠٠١ م مذكرة أخرى إلي ريس يبلغها فيها أن هناك حاجة ماسة لعقد اجتماع عاجل لقيادات مجلس الأمن القومي لبحث استراتيجية مواجهة القاعدة المقترحة في مذكرته الأولى ، ولكن للأسف لم يتم عقد هذا الاجتماع. طلبنا من ريس قبل الهجمات مباشرة صلاحيات لمطاردة بن لادن وقتله أو اعتقاله فطلبت منا سحب الطلب !! وفي مارس من نفس العام ٢٠٠١ ، توجهت إلي ستيفن هادلي نائب ريس في مجلس الأمن القومي وسلمته قائمة بصلاحيات نريد الحصول عليها لمطاردة بن لادن. ولكن طلب منا بعد يومين سحب الطلب ، وقيل لنا أن الإدارة ستعيد النظر في سياستها تجاه القضية برمتها ، وأيضاً لم يتم أي شيء من هذا القبيل. و في ٣٠ مايو ٢٠٠١ م ، اصطحبت معي إلي اجتماعي الأسبوعي مع ريس جون ماغلوجلين وكوفر بلاك وريتش بي (لا يمكنني أن أعرفه أكثر هنا) أحد كبار مساعدي كوفر وكان برفقة كوندي في الاجتماع ديك كلارك وماري ماكارئي. وعرض ريتش المؤشرات والأدلة علي أن هناك هجوماً قادمًا ضد الولايات المتحدة. وكانت وبحق مرعبة. وأبلغنا ريس في الاجتماع أن أحد كبار نشطاء القاعدة ويدعى أبو زبيدة يخطط لمهاجمة طائرات ركاب. وبعد ذلك قدمنا أنا وكوفر قائمة بمخططات للقاعدة تمكنا من رصدها ، وهجمات ، توصلت تقاريرنا إلي أن القاعدة ستنفذها. وفي هذه القائمة هجوم لإرهابيين يمنيين ضد الأردن وتخطيط جماعة باكستانية لمهاجمة الجالية الأمريكية في جدة بالقنابل ، وتخطيط جماعة كولومبية لمهاجمة عدة أهداف في العاصمة بوجوتا منها السفارة الأمريكية ، وإعداد حزب الله العدة لعمليات إرهابية واسعة النطاق في جنوب شرق آسيا ، وتخطيط جماعة متطرفة لمهاجمة سفارتنا في العاصمة اليمنية صنعاء ، ومغادرة ٤ سعوديين دولة الإمارات إلي الكويت لمهاجمة مصالح أمريكية ، ورصد ٣ عناصر كان قد تم القبض عليها في ماليزيا لمرافق وسفن أمريكية هناك لضربها ، واختراق السلطات الإيطالية في شهر يوليو لخلية إرهابية جزائرية كانت تخطط لهجوم ضد السفارة الأمريكية في روما أو الفاتيكان ، وتخطيط قيادي القاعدة في افغانستان ، الذين دبروا الهجوم علي المدمرة كول ، لهجمات جديدة ضد

الولايات المتحدة ، بالإضافة إلى تخطيط المصري أيمن الظواهري كبير مساعدي بن لادن لهجمات كبرى في أوروبا.

بيروقراطية بوش وإدارته سبب الكارثة .. ولم تساعدنا لحماية أمن أمريكا من القاعدة !!
 وفي العاشر من يوليو ٢٠٠١ ، وبفعل تلال التقارير التي لا تقبل الدحض ، والأخطار والتهديدات ، التي لا تخطئها العين ، ويشيب لها شعر الرأس ، بادرت بدوري إلى التقاط سماعة الهاتف ، في إصرار من جانبي على لقاء فوري مع راييس لإطلاعها على تهديد القاعدة. وبدأت الاجتماع بجملة استهلاكية هي: "هناك هجوم إرهابي كبير سيقع في الأسابيع أو الشهور المقبلة ". وكان من المستحيل تحديد يوم بعينه سيقع فيه هذا الهجوم. وخلال هذا الاجتماع تم عرض رسم توضيحي يشير إلى تجمع سبع معلومات استخبارات محددة خلال الساعات الأربع والعشرين السابقة ، وكلها تنبأ بهذا الهجوم الوشيك. ومن المؤشرات في هذا الصدد توجه عناصر إرهابية بأعداد كبيرة إلى أفغانستان ، ومغادرة أعداد كبيرة من أفراد عائلات عناصر أخرى إلى اليمن ، بالإضافة إلى دلائل ومؤشرات حول وجود تهديدات جديدة للمصالح الأميركية في لبنان والمغرب وموريشيوس. وتعددت المؤشرات الأخرى إلى هجوم وشيك وصف بأنه سيكون هجوماً مدوياً ومعداً لإيقاع خسائر هائلة في تسهيلات ومصالح أميركية. وقال ريتش بي إن الاستعدادات للهجوم قد تمت بالفعل ، وأن الهجمات يمكن أن تكون متعددة ومتزامنة ، وبدون تحذير مسبق أو محدد ، وأن القاعدة تنتظر ، وتبحث عن نقطة ضعف لاستغلالها. ولخص ريتش جهود السي. آي. ايه للحيلولة دون استهداف أهداف معينة من قبل تنظيم القاعدة ، وأوضح أن هدف الوكالة ليس ترهيب من يستعدون للهجوم أو إيقافهم ، وإنما حملهم على الاعتقاد بأن خططهم معرضة للخطر، وذلك على أمل أن يتم دفع التنظيم لتأجيل الهجمات على الأقل ، لكسب لوقت حتى يتم استئصال التنظيم ومن ثم انهاء تهديداته. وهنا انتقل ريتش من الوضعية الدفاعية إلى الوضعية الهجومية في مواجهة تنظيم القاعدة ، مطالباً بضرورة نقل المعركة إلى أفغانستان والاستفادة من سخط بعض القبائل هناك على طالبان والاستعانة بالمقاومة الأفغانية المسلحة. وهنا طرحت راييس السؤال المتوقع: وماذا يتعين علينا أن نفعل ؟.. وهنا رد كوفر على الفور بقوله : هذا البلد بحاجة الآن إلى الانتقال لوضعية الحرب. ومرة أخرى عادت راييس تسأل: إذن ما الذي يمكننا عمله للانتقال إلى وضعية الهجوم ؟. وجاء الرد، ولا اتذكر ما إذا كان قد جاء على لساني أم على لسان كوفر: علينا أن نحصل على الصلاحيات التي سبق وتقدمنا للمطالبة بها في شهر مارس الماضي. ولكن قبل ذلك كان يتعين على الرئيس الأميركي

تعديل سياسته بما يتوافق مع الوضع الجديد ، وهو ما أكدت رايس أنه سيحدث. واثناء مغادرتي مكتب رايس رحلت أبادل التهاني مع مساعدي الاثنين على أننا قد حصلنا أخيراً على الانتباه الكامل من جانب إدارة بوش. ومع ذلك ، فقد ذهبت الآمال إدراج الرياح ، حيث حالت بيروقراطية الإدارة دون منحنا الصلاحيات التي طالبنا بها في شهر مارس إلا في ١٧ سبتمبر ٢٠٠١ .

وتوالى التقارير والمعلومات الاستخباراتية ، التي تؤكد أن هجوماً كبيراً سيقع ، واستمرت في التوالي حتى العاشر من سبتمبر، وبعد أربع وعشرين ساعة توالى الأحداث التي اعتقد الجميع أنه لا مجال للتفكير في وقوعها ، والتي لم أكن أنا وكذلك جميع أفراد وكالتي نفكر في أي شيء آخر غيرها.

هذا هو ما حدث يوم ١١ سبتمبر

في صبيحة يوم ١١ سبتمبر .. ذلك اليوم الذي غير كل شيء في حياتنا ، التقيت السيناتور السابق ديفيد بورين لاتناول فطوري معه في فندق سانت ريجس بواشنطن ، وكان ذلك في الساعة الثامنة والنصف . وكان الرئيس بوش في تلك اللحظة خارج العاصمة في جولة بولاية فلوريدا ، مما كان يعني إعفائي من تقديم الموجز اليومي للرئيس كالمعتب . وكان ديفيد قد التقطني من العدم في عام ١٩٨٧ ، لكي أخدم كرئيس أركان لجنة الاستخبارات التابعة لمجلس الشيوخ التي كان يرأسها . وقد كنت ملهوفاً ذاك الصباح للقاءه كعادتي دائماً . وما كدت ألتقيه حتى رأيت تيم وورد المسئول عن حراستي الخاصة يهرع إلي حيث مكاني ، وملامح القلق ترسم علي وجهه. وكما تتطلب مهام منصبه ، كان تيم يتمتع برباطة الجأش ، شخص لا يمكن استشارته بسهولة ، ولكن ما بدا عليه هذا الصباح كان ينم علي أن هناك أمراً عاجلاً ، حيث قاطعنا ، فأدركت أن هناك بدون شك أمراً مهماً يريد إطلاعي عليه ، فما كان مني إلا أن قمت وتنحيت به جانباً ، ليلبغني أن طائرة اقتحمت البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي . ولم يحدثني عن الضحايا ، حتي أشرت إليه بأني اتفهم ما حدث لهم . مؤكداً أن هذا التصادم الأول هو حادث مأساوي . ولم يستغرق الأمر الكثير ، حتي ضربت الطائرة الثانية البرج الثاني ليتبين لهم أن أنه لا يزال هناك الأسوأ .. وهذه لم تكن القضية بالنسبة لي فقد كنت وزملائي نتعاش عن قرب مع احتمال التعرض لهجوم إرهابي ضد الولايات المتحدة . وأدركت علي الفور أن هذه الهجمات قام بها تنظيم القاعدة. وعندما أبلغت بورين بهذه الأخبار ، تذكر تحذيراتي من بن لادن ، وتساءل بصوت عال عما إذا كان زكريا موسوي متورطاً في هذه الهجمات. الهجمات قلبت عالمنا الأمريكي الآمن رأساً علي

عقب ورغم توقعاتنا إلا أن الفرق شاسع بين توقعها ووقوعها!! وتركت تيم بورين وهرعت إلي سيارتي وعدت بسرعة لمكتبي في سي آي إيه . وفي هذه الدقائق الأولى كاد رأسي ينفجر . ورحت أستدعي في مخيلتي جميع النقاط العشوائية التي قمنا بتجميعها ، وتذكرت مؤامرة " بيونكا " لتفجير ١٢ طائرة ركاب أمريكية فوق مياه المحيط الهادي ، وما أعقبها من إحباط خطة لمهاجمة مقر السي آي إيه بطائرة ركاب صغيرة في عام ١٩٩٤ م. لقد انقلب علمنا الأمريكي الآمن رأساً علي عقب ، ووصلت الحرب علي الإرهاب إلي شواطئنا. وكانت الدقائق الإثني العشر التي أعقبت سماعي انباء الهجمات هي الأطول في حياتي. وفي الطريق اتصلت برئيس أركان جون موسيمان ، وطلبت منه جمع كبار ضباط الأركان في قاعة الاجتماعات بالوكالة المتاخمة لمكتبي . وكان هاتفي المؤمن يتعرض لنوبات توقف أثناء الطريق ، وعندما وصلت مكتبي ، علمت أن طائرة أخري ضربت مبنى البنتاجون (مقر وزارة الدفاع الأمريكية) .

و الآن وحتى بعد مرور خمس سنوات علي الهجمات ، لا أستطيع أن أصف الأجواء النفسية التي وجدتها تسيطر علي هذا الاجتماع عند وصولي في الساعة التاسعة والنصف علي ما أتذكر. ولا أعتقد أن شخصاً واحداً من بين من حضروا هذا الاجتماع كانت تساوره ذرة شك في أن هذه الهجمات الواسعة النطاق من تدبير القاعدة. ورغم أننا لطلما توقعنا ماجري إلا أن هناك اختلاف كبير للغاية بين أن تتوقع أمراً وبين أن تراه وهو يقع بالفعل ، كما شهدنا مثلاً انهيار مركز التجارة العالمي. وفي الساعة التاسعة وأربعين دقيقة انضم إلينا جون ماجلوغلين وكوفر بلاك وديك كلارك من البيت الأبيض عبر دائرة تليفزيونية مؤمنة . وفي هذه اللحظة لم يتوقف رنين التيلفونات سواء من المسئولين أو الأصدقاء أو حتي الأهل والأقارب للتأكد من صحة الأنباء والشائعات التي راحت تتردد ، ومنها أن قبلة سقطت علي الجناح الغربي من البيت الأبيض ، وأن النيران اشتعلت في مبني الكونجرس ووزارة الخارجية الأمريكية ، والحقيقة أننا في تلك اللحظة لم يكن لدينا أي فكرة عما هو حقيقي وما هو كاذب. ولم نكن نعرف أيضاً ماذا ينتظرنا فيما بعد ، ونحن الذين كان قد نما إلي علمنا أن القاعدة تنوي ضرب مقر وكالتنا بطائرة ، علماً بأننا كنا نجتمع في تلك اللحظة في الطابق السابع عشر (الأخير) من مقر " سي . أي . آيه ". واتذكر أنني سألت مايك هولفيلدر رئيس حرسى الخاص عما يوصي به في هذا الصدد فبادرني قائلاً : " هيا نخرج من هنا .. دعنا نخلي المكان . والحقيقة أنني كنت متردداً ، فلم أكن أريد العاملين بوكالتي ، أو العالم ككل أن يعتقد بأننا نقفز من السفينة ، في نفس الوقت الذي لم أكن أريد فيه أيضاً أن أخطر دون داع بحياة رجالي . وهنا قال أحد الحضور من رجالي : إننا في حاجة إلي أن تكون قيادتنا

آمنة لا يمسه سوء ، وقادرة علي اتخاذ القرارات. وفي حوالي الساعة العاشرة طلبنا من موظفينا بالوكالة

منتهى البيروقراطية :

طلبنا قوائم ركاب

الطائرات يوم الهجمات

فقالوا لنا : ليس من

حق " سي . آي . إيه

" الحصول عليها!!

والذين يقدر عددهم بعدة آلاف بالعودة إلي منازلهم ، لينخرطوا في زحمة المرور غير المسبوقة التي كانت تشهدها واشنطنون في تلكم الأثناء . وكان قد تم إخلاء البيت الأبيض قبل ١٥ دقيقة ، بعد ضرب البنتاجون مباشرة . كما كان قد بدأ إخلاء مبني الأمم المتحدة من موظفيه البالغ عددهم ١٢ ألف موظف منذ الساعة العاشرة وثلاثة عشرة دقيقة . وبعد دقائق بدأ إخلاء وزارتي الخارجية والعدل والبنك الدولي. وتم نقل كبار ضباطي من قاعة الاجتماعات إلي الطابق الأول الآمن نسبياً وإن كان عرضة

للانهيار حال مهاجمة المبني بطائرة . ثم غادرنا جميعاً المبني حيث اتخذنا أماكننا في مبني وحدة الطباعة البعيدة وجهازناها كغرفة عمليات. وكان المكان يعج بالفوضى ، وحاولنا الاتصال بـ مايك موريل الذي كان مسئولاً عن استقبال موجزي الاستخباراتي للرئيس عندما لا يكون الأخير بواشنطنون ، ولكنه لم يكن موجوداً ، حيث كان برفقة الرئيس في ولاية فلوريدا عندما ضربت الطائرة الأولى مركز التجارة العالمي . وقد أبلغني مايك فيما بعد بالقصة .. قال إنه ومستشار بوش كارل روف والمتحدث باسم

أول سؤال لبوش فور

وقوع الكارثة:

تفتكر الجبهة الشعبية

لتحرير فلسطين هي

منفذة هذه الهجمات

..

البيت الأبيض آري فليتشر كانوا يركبون سيارة الجولف الصغيرة عندما تلقي آري مكالمة هاتفية تسأله عم إذا كان يعرف أي شيء عن أن طائرة قد ضربت مركز التجارة العالمي . وعلي الفور طلب مايك مركز عملياتنا فرد عليه بأن الطائرة لم تكن صغيرة . وبينما كان مايك ينتظر انتهاء الرئيس بوش من لقائه مع تلاميذ واساتذة المدارس اليتدائية ، شاهد مايك الهجوم علي البرج الثاني . وعلي متن طائرة الرئاسة سأل الرئيس مايك عما

إذا كانت جماعة فلسطينية تطلق علي نفسها اسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هي فعلاً مدبرة الهجمات كما أعلنت مسئوليتها عن الهجوم في الصحافة ، ورد عليه مايك بقوله: " ليس محتملاً ، فالجبهة الشعبية ليس لديها الإمكانيات لعمل هذا " وهنا قال بوش لمايك إذا كان لدي سي آي إيه أيه أيه معلومات بخصوص الهجمات فأنا أريد أن أكون أول من يعرفها . وبمجرد فتح قنوات الاتصال مع الرئيس وفريقه ، أخذنا نلملم كل ما نستطيع من معلومات ، وانتقل رجالنا إلي مدينة نيويورك . وعلي سبيل المثال فقد أكتشفنا كيف أن الخاطفين تمكنوا من التشويش علي راداراتنا بارسال إشارات معينة

حتى لا يتم اقتفاء آثار الطائرات ، وهم في طريقهم لشن الهجمات . ورغم تأكدنا من أن القاعدة وراء الهجمات إلا أننا كنا في حاجة إلي دليل ، لذا طلب مركز مكافحة الإرهاب لدينا إدارة الطيران المدني بموافقتنا بقوائم ركاب الطائرات التي تحولت إلي أسلحة هجومية هذا الصباح . ويا للغرابة ، فقد كان الرد الأول علي طلبنا هذا - في إطار البيروقراطية المعهودة - أنه ليس من حق الـ سي آي آيه تقاسم هذه المعلومات معنا!! ولكن مع إجراء بسيط وصلت القوائم وعكف رجالنا في مركز مكافحة الإرهاب الذين كانوا يعملون من وحدة الطباعة علي فحصها . ليكتشفوا كما جاء في تقرير رئيس المركز " أن بعض أولئك المخاطفين ممن كانوا علي إحدي الطائرات هم أنفسهم الذين كنا نبحث عنهم خلال الأسابيع القليلة التي سبقت الهجمات " . وأشار رئيس المركز إلي اسمين علي وجه التحديد : خالد المحضار ونواف الحازمي . وكانت هذه هي المرة الأولى ، التي كان لدينا فيها دليلاً قاطعاً لا يقبل الدحض مطلقاً ، يؤكد ما توصلت إليه منذ اللحظة الأولى التي علمت فيها بالهجمات: نحن في وسط مؤامرة للقاعدة . و في تلك اللحظة اتصل بي ديك تشيني نائب الرئيس يسألني عما إذا كنا نتوقع المزيد من الهجمات . وفي تلكم الأثناء ، كانت طائرة رابعة محتطفة قد وصلت إلي شانكسفيل بولاية بنسلفانيا . وقد أجبت على سؤال نائب الرئيس بالنفي . وقلت له أن تجربتنا مع القاعدة تشير إلي أنها تنفذ الهجمات بالتزامن أي في وقت واحد ، وأنها ستكتفي بهذا القدر في ذلك اليوم . وأننا لا نتوقع أية هجمات أخرى ، وأن هذا هو ما تعلمناه من هجمات القاعدة ضد سفاراتنا في إفريقيا . وقد غادرت أنا ورجالي مبني وحدة الطباعة ، وعدنا للمبني المقر للوكالة حوال الساعة الواحدة مساءً . وكان الخطر قد زال علي الأقل لهذا اليوم . وبعد سلسلة من الاجتماعات مع رجالي ، كان هناك اجتماع آخر ، ولكن مع الرئيس عبر دائرة تليفزيونية مؤمنة . و يسجل التاريخ أن الرئيس بوش الذي كان قد هبط في قاعدة أوفوت الجوية في ولاية نبراسكا ، أثناء طيرانه عائداً إلي واشنطن ، بخط سير متعرج ، لا يمكن تتبعه ، تحدث معي من مقر القيادة الاستراتيجية الأمريكية تحت الأرض . وأتذكر الرئيس بوش وهو يسألني عن نفاذ - في اعتقادي - هذه الهجمات . فأجبتة بنفس الكلمات ، التي أجبت بها ، عن نفس السؤال ، الذي طرحه نائبه تشيني قبل عدة ساعات من مكالمته : القاعدة .

وعنما أبلغت الرئيس عن المحضار والحازمي صرخ في وجه مايك موريل : كان من المفترض أن أكون أول من يعلم بهذا . وقد كان الرئيس أثناء هذا اللقاء عبر الدائرة التليفزيونية رابط الجأش ، ومحتفظاً بتركيزه ، وعندما التقيته ليلة نفس اليوم وجدته يؤكد انطباعي الأول عنه . وأتذكر أنني وجدت لدي

للقاء الرئيس تلك الليلة ، ربما بعد الساعة التاسعة ، وجدت البيت الأبيض ، وقد تحول لحصن منيع . وهناك كان الرئيس ومعه نائبه تشيني ومستشارته للأمن القومي كوندوليزا رايس ، ووزير خارجيته كولين باول ووزير دفاعه دونالد رامسفيلد والجنرال هوف شيلتون رئيس هيئة الأركان المشتركة ، وعدد قليل آخر بينهم لين تشيني ولورا بوش.

١١ سبتمبر " صنفرت " بوش ومنحت "سي . آي . إيه"

لأول مرة موارد وصلاحيات حقيقية لطالما طالبنا بها !!

وكان الرئيس قد ألقى خطاباً للأمم في الساعة الثامنة والنصف من مساء اليوم ضمن فيه ما أصبح يعرف - فيما بعد - بـ " مبدأ بوش " : لقد وجهت كل موارد مخابراتنا وجميع أجهزتنا المكلفة بفرض القانون للبحث عن هؤلاء المسؤولين عن الهجمات وإحضارهم أمام العدالة. وسوف لن نميز بين الإرهابيين الذين ارتكبوا هذه الأفعال ، وهؤلاء الذين يحتضنونهم. وبالنسبة لنا في سي . آي . إيه فإن مبدأ بوش الجديد هذا كان يعني بالنسبة لنا أن القيود التي لطالما فرضت علينا وغلت أيدينا قد رفعت أخيراً . وقد كانت لدينا بالفعل خطة موضوعة علي الأرفف بوكالتنا لتعقب كل من القاعدة وحماها (طالبان) في أفغانستان ، والآن نستطيع البدء في تنفيذها. ووسط مشاعر الأسي التي صاحبت ذلك اليوم ، أدركنا أننا سنحصل أخيراً علي تفويض وموارد لكي نقوم بالمهمة التي كنا نعرف أنه لا بد من القيام بها . ولا شك أن ١١ سبتمبر كانت لحظة " صنفرت " أو " صقلت " رئاسة بوش . فقد حولته بطريقة لم يكن أحد منا ليتنبأ بها . وقد شهدت قيادته للبلاد خلال الأشهر التالية اختلافاً هائلاً عما كان عليه الحال قبل الهجمات .

بوش وصقوره وصلوا البيت الأبيض والنية مبيتة لغزو العراق

في اليوم التالي لهجمات ١١ سبتمبر، التقيت بالمسؤول السابق في وزارة الدفاع وأحد أبرز مفكري المحافظين الجدد ريتشارد بيرل ، بينما كان خارجاً من البيت الأبيض. وقد فوجئت ببيرل ، الذي لم يكن يشغل منصباً رسمياً في الإدارة الأميركية ، يقول : على العراق أن يدفع ثمن ما حدث بالأمس. إنه يتحمل المسؤولية. وقد صدمني ما سمعت ، فالتفت إلى الخلف سائلاً نفسي: " ما الذي يتحدث عنه هذا الرجل بحق الجحيم ". كما رحلت أتساءل عن سبب وجود بيرل في البيت الأبيض في أولى ساعات صباح ذلك

اليوم تحديداً ؟.

بوش وصقوره وصلوا البيت الأبيض والنية مبيتة لغزو العراق!!

واستغلوا أجواء سبتمبر لغسل مخ الأمريكيين وكسب تأييدهم للحرب!!

سيظل الموعد المحدد ، الذي أصبح فيه غزو العراق أمراً حتمياً ، أحد أكبر الألغاز بالنسبة لي . فقد كنت في الفترة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ، والشهور أيضاً التي سبقتها ، مشغولاً إلى حد الهوس بالحرب على الإرهاب .

ولم تكن الليالي الطويلة التي جفاني فيها النوم في تلك المرحلة لها أي صلة بصدام حسين ، وإنما كانت القاعدة هي التي تسيطر علي الكوايس التي كانت تداهمني في نومي ، ولم يكن السؤال هو : ماذا لو ضربت ؟ .. وإنما كان حول الشكل الذي ستتخذه ضربتها المقبلة . بمعنى : كيف ستضرب ؟ . وكنت أقدم زناد تفكيري حول ما يمكننا عمله لتعطيل وعرقلة ومنع مثل هذا الهجوم . وعندما أعود بذاكرتي للوراء ، فإنني أتمنى لو كان بمقدوري أن أعطي مجهوداً واهتماماً مماثلاً للعراق . ففي ضوء جميع الأخطاء الفادحة التي قدر للإدارة الأميركية الوقوع فيها ، كان العراق يستحق مساحة أكثر من وقتي . ولكن عذري هو أن ما كان لدينا في تلك الفترة من حقائق مجردة ، لم يكن ليجعلني أتصور أن هناك أي داع أو ضرورة لتحرك قطار الغزو وبمثل هذه السرعة . فكثير من أفراد إدارة بوش كان العراق يمثل شغلهم الشاغل حتي من قبل وصولهم معه للسلطة ، ولدى وصولهم كان العراق يسيطر علي تفكيرهم . فبعد إعلان بوش رئيساً ، وقبل توليه الفعلية للسلطة بوقت قصير ، كان ديك تشيني قد طلب من ويليام كوهين وزير الدفاع الذي كان يغادر منصبه تقديم تقرير شامل وكامل عن العراق ، والخيارات المتاحة فيما يتعلق بهذا البلد . وبالنسبة لي كان الأمر يبدو طبيعياً أن يتم إحاطة الرئيس الجديد وبسرعة بكل ما يتعلق بالقضايا محل اهتمام الولايات المتحدة . فقد كانت أطقم مقاتلاتنا الجوية تحرس المنطقة المحظورة الطيران فوقها شمال العراق وسط مخاطر كبيرة ، في الوقت الذي كانت فيه العقوبات المفروضة ضد صدام تتآكل بخطى منتظمة .

رجال بوش ومنظروهم حاولوا مداراة فشلهم في سبتمبر

بفبركة علاقة وهمية بين العراق والقاعدة وأسلحة الدمار!!

وكان هناك ومنذ البداية ثمة دليل علي أن نائب الرئيس ديك تشيني لديه نية مبيتة للتدخل في توجيهه

مسار عمل وكالة المخابرات المركزية وما تقوم به من جمع معلومات وإعداد تقارير. وقد تركت قضية لويس لبي (مدير مكتب ديك تشيني نائب الرئيس الذي أدانته المحكمة بتهمة تسريب اسم فاليري بليم ويلسون العميلة السرية بوكالة الاستخبارات المركزية "سي.آي.ايه" الى الصحافة) تركت هذه القضية وما أثير خلال المحاكمة من أن اعتراف لبي بأن تشيني هو الذي أمره بأن يكشف للصحفيين اسم فاليري ، انطباعاً بأن هناك شكل ما من أشكال الحرب تدور بين " سي.آي.ايه " ومكتب نائب الرئيس. ولو كانت هناك حرب فهي من جانب واحد (مكتب تشيني) فنحن بهذا المعنى لسنا بمقاتلين. وحتى هذه اللحظة ، رأيت تشيني مهتماً بأحوال الوكالة ، ومستمراً في طرح الأسئلة الصعبة ، وكنت أرحب بأسئلته ، ما دمت أجيب بما لدي من حقائق ومعلومات ، وليس ما يود الطرف الآخر سماعه. ولكن حدث ما أثار حفيظة العاملين بوكالتي فقد بات مسئولو إدارة بوش لا هم لهم سوي العراق وبالتحديد علاقة العراق بتنظيم القاعدة ، وكلما أكدنا لهم أن معلوماتنا لا تظهر أي صلة بين الطرفين ، لا يستسيغوا الرد. وقد جاءت إلي في أحد أيام عام ٢٠٠٢ جامي ميسيك التي تشغل منصب كبير محللينا في الوكالة تشكو من أن عدداً من صانعي السياسات بإدارة بوش حددت منهم سكوتر لبي وبول وولفويتز يظهرون الامتعاض وعدم الرضا عن ردودنا علي أسئلتهم المتكررة فيما يتعلق بتورط العراق في علاقات مع تنظيم القاعدة. وما كان مني إلا أن قلت لها قولي لمحللينك أن يردوا عليهم في المرة القادمة بعبارة مقتضبة هي : ردنا هو نفسه كما المرة السابقة. والحقيقة أن التركيز علي العراق بواسطة كبار المسؤولين في إدارة بوش كان هو شغلهم الشاغل ومنذ البداية. ولم لا وقد كان بول وولفويتز وريتشارد بيرل ودوجلاس فيث من بين ثمانية عشرة شخصاً وقعوا علي رسالة علانية صادرة عن جماعة أطلقوا عليها اسم " مشروع القرن الأمريكي الجديد " ويطالبون فيها بإسقاط صدام حسين. وغالباً ما يُنسى أيضاً أن تغيير النظام في العراق كان سياسة رسمية معلنة أيضاً لإدارة الرئيس بيل كلينتون ، وكان الهدف من قانون تحرير العراق الذي أعلنه الكونجرس في عام ١٩٩٨. وقد تم تخصيص ١٠٠ مليون دولار لوزارة الخارجية لاستخدامها في عملية السعي لوضع نهاية لنظام صدام. وفي بداية عمل إدارة بوش اقترح وزير الخارجية كولين باول تخفيف العقوبات الدولية علي العراق ، واستبدالها بما اصطلح علي تسميته بـ " العقوبات الذكية " .. وفي أوائل عام ٢٠٠١ ، تحدث عن أن أمريكا يتم اغتيالها سياسياً أمام محكمة الرأي العام العالمي لوجود انطباع في العالم بأن أطفال العراق يموتون جوعاً بسبب هذه العقوبات. واقترح باول من أجل تحسين صورتنا في العالم أن يتم استبدال العقوبات القائمة

بأخري " ذكية " تتركز أكثر علي المشتروات العسكرية. ولكن باقي أفراد الإدارة رفضوا قائلين بأن هذا سيسمح لصدام بالمراوغة واستعادة برامج أسلحته ولكن مع تمسك باول باقتراحه ، وافقوا علي " العقوبات الذكية " ، ولكن أيضاً اطاحوا بها بسرعة كأن لم تكن ! وفي يوم ٧ فبراير عام ٢٠٠١ م ، وبعد أقل من اسبوعين علي تولي الإدارة الجديدة ، ترأست كوندوليزا رايس (كوندي) اجتماعاً للجنة كبار المسئولين الأمنيين في البيت الأبيض وتركز حول العراق. وكان معي في ذلك الاجتماع نائب جون ماجلوجين. وكما جرت العادة في العديد من الاجتماعات التي تمت في بداية عهد إدارة بوش ، فقد بدا أن الهدف منه هو جمع المعلومات ، وتحديد المهام البيروقراطية ، حتي تتمكن الحكومة فيما بعد من رسم سياستها العامة في هذا الصدد. وكان موضوع العراق قد انزوى بعيداً عن بؤرة الاهتمام في ربيع وصيف ذلك العام - علي الأقل بالنسبة لي - حيث استرعت الكثير من القضايا الملحة اهتمامي ، ومن هذه القضايا أو الأحداث التي تم نسيانها الآن - تماماً - إجبار الصين مقاتلة البحرية الأمريكية إي بي ٣ علي الهبوط في إبريل ، مما تسبب في توترات رهيبية عشناها على مدى ١١ يوماً. وتمضيي جزءاً كبيراً من شهر يونيو في الشرق الأوسط اتنقل ما بين اسرائيل والأراضي الفلسطينية للمساعدة في استقرار الموقف الأمني هناك. ولكن ذلك لا يعني أننا تجاهلنا صدام. فقد كانت في إدارة عمليات " سي. آي. ايه " مجموعة عملياتية خاصة بالعراق تخطط لجميع العمليات السرية التي قد يطلب منها تنفيذها داخل العراق ، أو عند حدوده. وفي شهر أغسطس ٢٠٠١ ، قمنا بتعيين رئيس جديد لهذه المجموعة ليس باستطاعتي الافصاح عن اسمه ، لأن الكشف عنه لا يزال قيد الحظر ، وكان هذا الضابط الذكي والمنظم الفكر أمريكي من أصل كوبي ، وكان دائماً يقول في الاجتماعات أنه لولا الإخفاق الأمريكي في عملية " خليج الخنازير " التي قامت بها الولايات المتحدة ضد كوبا ، لما قد رحل عن بلاده كوبا وجاء للإقامة في أمريكا. ويقول إن أهم الدروس المستفادة من هذه العملية ، ومن تاريخ عملياتنا غير السعيد ضد العراق منذ نهاية حرب الخليج عام ١٩٩١ أو الرسالة التي يجب أخذها في الاعتبار هي أنه لا يمكن إزاحة صدام بعمليات سرية فقط. وقد توصل عدد من كبار مسئولي إدارة بوش أتفهم دوافعهم ، ومعهم مجموعة من منظريرهم في وسائل الإعلام في أوائل عام ٢٠٠٢ إلي أن سي آي ايه غير مستعدة للقيام بمهمة إسقاط صدام الصعبة. ولكن القضية لم تكن كذلك على الإطلاق ، فبغض النظر عن تحليلاتنا التي تؤكد وجود عدة مستويات أمنية لحماية صدام والتي لا يمكن اختراقها بسهولة للوصول إليه ، كانت القضية بالنسبة لنا هي أننا حتى لو استطعنا الإطاحة بصدام ، يظل هناك احتمال قائم بتولي جنرال سني مكانه ، وبذلك نستبدل صدام

بآخر. ولكن استنتاجاتنا هذه لم تحظ برضا الإدارة التي كان هدفها أن تجعل من العراق نموذجاً للديمقراطية يُحتذى به في الشرق الأوسط.

إدارة بوش لم تجر أية نقاشات جادة حول قرار الحرب ولم تبحث احتواء العراق

وولفويتز أصر من البداية علي إدراج صدام ضمن من يشملهم الانتقام الأمريكي!!

ولأن كل شيء تغير بعد ١١ سبتمبر فقد حاول معظم مسؤولي بوش إخفاء ومداراة فشلهم في التعامل مع تحذيرات سي. آي. إيه " من القاعدة باختلاق صلة تربط العراق واسلحة دماره الشامل بهذا التنظيم الإرهابي. واستغلوا تأثير الأمريكيين عاطفياً بالهجمات للتأسيس لهذه الصلة نفسياً من خلال رسالة ركزوا عليها مفادها: " نحن لن نسمح أبداً بأن يفاجئنا أحد كما حدث في ١١ سبتمبر. وأنا في حالة العراق وإذا ما تأكلت العقوبات واستمر صبر المجتمع الدولي علي صدام فسوف نستيقظ ذات يوم لنجد بحوزته سلاحاً نووياً ولن نكون في وضع يسمح لنا باحتواء تهديداته". والحقيقة أن إدارة بوش لم تجر أبداً أية نقاشات جادة حول قرارها بغزو العراق. ولم تركز إلا علي الغزو باعتباره أمراً واقعاً ، ولم تبحث ما إذا كان صدام يمثل تهديداً عاجلاً لأمن الولايات المتحدة ، وإنما كانت تعتبره كذلك ، حتي في ضوء حقيقة عدم وجود ما يدل علي ذلك. وعلي عكس ما جرت عليه العادة في هذه الأحوال لم يكلف رجال الرئيس وفي مقدمتهم نائبه تشيني نفسه حتي بإثارة احتمالات احتواء العراق .

ضابط عسكري كبير قال لـ " فيث " يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠١ :

لا بد من مهاجمة القاعدة في أفغانستان ..

فرد عليه : يجب أن نتوجه بحملتنا العسكرية فوراً لبغداد !!

وبغض النظر عما ذكرته آنفاً في بداية الكتاب من أنني التقيت صدفة ريتشارد بيرل في ساعة مبكرة من يوم ١٢ سبتمبر ، أي بعد الهجمات بيوم واحد خارجاً من البيت الأبيض ، وصدمني لسماعه يقول لي : علي العراق أن يدفع ثمن ما فعله بالأمس .. بغض النظر عن بيرل وما قاله ، هناك حادث آخر يبين كيف أن النية كانت مبيتة لحرب العراق. فقد أبلغني مؤخراً ضابط عسكري كبير حدث أن كان برفقة دوغلاس فيث في أوروبا وقت وقوع هجمات ١١ سبتمبر، وأثناء عودته معه علي متن طائرة عسكرية اليوم التالي للهجمات ، قال هذا الضابط الكبير لفيث إن القاعدة هي المسؤولة عن هجمات اليوم السابق

، وأنه لا بد من القيام بحملة عسكرية كبرى ضد معاقليها في أفغانستان. وكم كانت صدمة هذا الضابط - كما روى لي - لدي سماعه فيث يرد عليه قائلاً الحملة يجب أن تتجه على الفور إلى بغداد.

رامسفيلد لم يكن متحمساً للحرب كنائبيه " فيث " و " وولفويتز" ورئيس أبلغت هاس في يوليو ٢٠٠٢ أن قرار الحرب اتخذ بالفعل!!

وفي اجتماعاتنا مع الرئيس في كامب ديفيد فور وقوع هجمات سبتمبر كان لدى بول وولفويتز إصرار غريب علي أن يتم إدراج صدام علي لائحة من تشملهم عملية الرد الأمريكي علي هذه الهجمات. وفي هذه الاجتماعات لم يظهر علي رامسفيلد وزير الدفاع تأييده لهذا الربط بين صدام والهجمات ، علي عكس نائبيه المتحمسين بصورة غريبة و بالنسبة لكوندوليزا رايس فقد كانت تشارك هؤلاء تحمسهم للحرب. وقد أبلغني ريتشارد هاس مدير التخطيط السابق في وزارة الخارجية (رئيس مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي في الوقت الراهن) .. أبلغني أن رايس قالت له في يوليو عام ٢٠٠٢ إن القرار تم اتخاذه بالفعل ، وما لم يخضع العراق لكل شروطنا وطلباتنا فإن الحرب ستقع لا محالة.

فوجئت بتشيني يقفز علي عمل سي. آي . ايه يمهد في خطاب للحرب متهماً صدام بحيازته سلاحاً نووياً في القريب العاجل سيضرب به أمريكا وحلفاءها!!

لم يقف الأمر عند هذا الحد ، فكم شعرت بالغرابة أيضاً عندما فوجئت بخطاب ألقاه نائب الرئيس تشيني في ٢٦ اغسطس ٢٠٠٢ أمام حشد من المحاربين القدامى قال فيه : «ليس هناك أدنى شك في أن صدام حسين لديه الآن أسلحة دمار شامل ، وهو يحشدها الآن لكي يستخدمها ضد أصدقائنا وحلفائنا وضدنا ". كما قال تشيني في نهاية خطابه : " هناك كثيرون منا علي قناعة بأن صدام سيمتلك سلاحاً نووياً في أقرب وقت " .

وهكذا اقتحم تشيني مجال عملنا ، وجافي الحقيقة ، وتحدث دون الرجوع لنا لكي ننفي ما وصل إليه من خلال تحليله الاستخباراتي الخاص ، حيث تجاوز فيما وصل إليه ما يمكن لتحليلات الوكالة أن تدعمه وقد كان ينبغي علي أن أبلغ تشيني بذلك ، ولو في لقاء يقتصر علينا نحن الاثنين ولكنني لم أفعل.

وفي مساء يوم الجمعة ٦ سبتمبر عام ٢٠٠٢ ، اجتمع فريق عمل الرئيس للأمن القومي وبمشاركة سي آي ايه في اجتماعات لبحث ما سنفعله مع العراق ، وقدم فريق رايس تقارير كثيرة تؤسس للحرب

وتضع تصورات لما يمكن أن تجري عليه.

حذرتهم كتابياً من كل ما يجري الآن في العراق ولكنهم لم يستمعوا لي وأكدت لهم أن الفوضى ستعم والإرهاب سيتصاعد ضد الأمريكيين!

وكنت قد قدمت في اجتماع سابق في ١٣ أغسطس ٢٠٠٢ ، ورقة بالغة الأهمية بعنوان " العاصفة الكاملة — الاستعداد للنتائج السلبية لغزو العراق". وتطرح هذه الورقة السيناريوهات الأسوأ التي يمكن أن تقابلنا أثناء محاولتنا تغيير النظام في العراق. وينص ملخص الورقة على أنه في أعقاب غزو تقوده أميركا للعراق ، فإنها ستواجه نتائج سلبية فيما يتعلق بالعراق نفسه ، وبالمنطقة ، ومايتجاوزها ، وهذه النتائج تشمل مايلي:

- الفوضى وتمزق وحدة أراضي العراق.
- فقدان للاستقرار يهدد الأنظمة في الدول العربية الرئيسية .
- اتساع هائل في نطاق الإرهاب العالمي ضد المصالح الأميركية يغذيه العداء الديني المتزايد للولايات المتحدة .
- انقطاعات كبرى في الإمداد بالنفط وتوترات شديدة في التحالف الأطلسي.. هكذا كان تحذيري لهم من العديد من المصاعب التي برزت فيما بعد غزو العراق .